د. عبدالوهاب محمد الزّنتاني

محنة وطن

بين متوجّع وشامت

الأطلسية للنشر


الاطلسية للنشر

محنة وطن

بين متوجّع وشامت

رواية سياسية اجتماعية هادفه

تأليف

د. عبد الوهاب محمد الزنتاني

إن المكان الذى لا يوجد فيه إطلاع ولا تعرف فيه القراءة، ولا يسمح فيه بالتفكير، لابد أن يكون هو الجحيم...

توفيق الحكيم

مقدمة

إيماني بالتفكير الحر والكلمة الصادقة والرأى البناء دفعني الى ان أكتب هذه الرواية السياسية الاجتماعية وقد كنت فى بلد خارج ليبيا عندما اشتدت ألازمة بين الجماهيرية والولايات المتحدة الامريكية، وكانت أمريكا قد حشدت قواتها البحرية فى منطقة البحر الابيض المتوسط واعلنت حالة الاستعداد فى قواعدها العسكرية فى اوربا، وكانت الجماهيرية قد رفضت الاذعان للتهديدات الامريكية، وتلك عقيدتها، فلقد كانت هكذا منذ قيام ثورتها سنة 1969م فهى ترغب فى ان تعيش فى سلام وان تقود سياستها الخارجية بعيدا عن التوجيهات او الايحاءات الخارجية، وكانت ترفع شعار الوحدة والتقدم الاجتماعى والسيطرة على ثرواتها الوطنية ومنها بطبيعة الحال (ثروة النفط) وهذا طموح وطني يعبر عن رغبة الجماهير ويؤدى الى دعم شعبى غير محدودة عندما يحدث التغيير السياسى، ومنذ وصول السيد ريجان ونجاحه بتلك الحملة الانتخابية التى استندت على تأجيج مشاعر الامريكيين مستفيدا من فشل الرئيس كارتر فى مواجهة الثورة الاسلامية الايرانية ووضع الرهائن الامريكيين هناك حيث قام هذا الاخير بعمل عسكرى فاشل لا يتناسب مع سمعة وقوة امريكا وعقلية الأمريكيين. .

نجح ريجان بنسبة كبيرة وقام باعمال طائشة ولكنها كانت تدغدغ خيال المواطن الذى يسهر كل ليلة مع افلام (الكاوبوى الامريكى) الذى يطلق الرصاص فى كل اتجاه ويصيب الجميع، ثم اعيد انتخاب الرئيس ريجان بنسبة عالية ايضا وهو بالتالى لابد ان يكون مقتنعا بان سياسته الخارجية مؤيدة ومقبولة من مواطنيه تجاه الآخرين بما فى ذلك حلفاء الولايات المتحدة

الامريكية فى اوربا بالذات الذين حولهم ريجان الى تابعين يتلّقون الامر من واشنطون، وهكذا فلقد كان الصدام مؤكدا بين دولة صغيرة تقع فى الشمال الافريقى، اى ليبيا، والولايات المتحدة الامريكية الدولة الاعظم فى عالم اليوم، والتى تسعى فيما يظهر الى ان تكون الدولة الوحيدة على وجه الارض من حيث القوة العسكرية والمادية وبالتالى قرار الحرب والسلام، وكانت ليبيا قد اعلنت ان خليج سرت مياه اقليمية ليبية لا يسمح لأى دولة بدخوله الا باذن من السلطات الوطنية ورفضت ذلك بالطبع الادارة الامريكية، ادارة الرئيس ريجان، بل اعلنت انها ستجرى مناورات بحرية وانها سوف تستخدم الخليج وقبلئذ كانت قد قامت بسلسلة من التدريبا ت العسكرية البرية فى مناطق محادية لليبيا، وكان الوضع العربى ككل فى غاية التعقّيد والتّردى حتى لكأن كل بلد عربى يتربّص بالآخر، وان السنة قد شهدت اعمالا عسكرية تعد من اعمال القرصنة والاعتداء فى اى قاموس من لغات وتقاليد العالم قامت به اسرائيل بالطبع فى المنطقة من بغداد الى تونس، وكان التهديد الامريكى قد اعاد المنطقة الى اجواء سبتمبر واكتوبر ونوفمبر سنة 1956م عندما بدأت بريطانيا وفرنسا تعدّان بالتعاون مع اسرائيل للعدوان على مصر جمال عبدالناصر، والوضع سواء بسواء مع فارق واحد من الجانب العربى وهو ان الوطن العربى كان الى حد ما متماسكا والانسان العربى متفاعلا مع الاحداث قادرا على الرد، وهذا هو المفقود فيما تصورت فى هذه المرحلة، وليس هناك اصعب وأكثر ايلاما ومثارا للحيرة من ان يكون الانسان بعيدا عن بلاده عندما يتهددها خطر خارجى او تلّم بها كوارث حتى لو كانت طبيعية ناهيك عن التهديد بالغزو المباشر من طرف دولة عظمى، ولقد اعتدت فعلا الولايات المتحدة فى شهر مارس على خليج سرت حيث ضربت المنشاءات العسكرية هناك وكانت تلك بداية لابد ان تلحقها اعمال عدوانية اخرى خصوصا ان الاعلام العربى كان هزيلا وجلا وما كان يجب ان يكون كذلك، فيما كان الاعلام

الغربى مؤيدا لأمريكا وهو بالضرورة لابد ان يكون كذلك فى حين ان بعض الشامتين والحاقدين قد أطلّوا برؤوسهم وكّشروا عن انيابهم الصدئة، ولقد كتبت عدة مقالات صحفية واتصلت بالكثير من الناس ليبيين وغير ليبيين وذلك أقل ما يمكن عمله ذلك ان الوطن فى خطر، ولقد آلمنى كثيرا أن أجد أنّ بعض الليبيين فرحين لأن امريكا ستتولى مهمة تدمير بلادهم، وآخرون حاسدون او حاقدون لأسباب عديدة، واردت أن اترجم تلك الاحداث فى رواية ربما تكون ابلغ فى ايصال ما يعتلج فى الصدر الى القارئ الكريم، فاذا كانت كذلك فتلك قمة سعادتى وان عجزت فقد حاولت وكانت المحاولة فى اوقات عصيبة يفقد فيها الانسان غالبا السيطرة على تفكيره وإختيار الكلمات اذ لا شئ يساوى ذرة من تراب الوطن، كذلك فان كل الذى أكتبه يمثل وجهة نظرى وان جاء على ألسنة اشخاص آخرين، ولقد كانت ليلة حلم طويل ايقضنى منه عمى الحاج محمد الصغير رحمه الله عندما رشّ على رأسى حفنة من تراب بلدتنا فاستيقضت واذا تلك البيوت المبعثرة بين اشجار الزيتون العتيقة واذا الرجل واقفا بعصاه المعقوفة وجرده الابيض وشعيرات لحيته البيضاء وعينيه الصغيرتين الدائريتين ينهرنى قائلا، لقد مات جدك وعمك وعاش والدك على هذا التراب وولدت هنا، وعلى قمة هذا الجبل مات طموح الايطاليون. . .

وعلى الله الاتكال ومنه العون

د. عبدالوهاب محمد الزنتانى

(كتبت هذه الرواية بقبرص

فى 23 يوليو 1986 ولم تنشر إلا الآن)

الفصل الأول

الغربة والخطر على الوطن

قال ابن الرومى . .
«وحبب أوطــان الرجــال اليهم
ومــآرب قضاها الشــباب هنالك
اذا ذكــروا أوطانهــم ذكّرتهــم
عهود الصبى فيها فحنوا لذلك» .

وقال شوقى . . . .
«وطنــى لو شــغلت بالخلــد عنه
نازعتنى إليه فى الخلد نفســى» .

تتضارب الأخبار وتختلف روايات أجهزة الإعلام توقعا للمواجهة حيث تدّق طبول الحرب بين دولة صغيرة ناشئة لا تملك من سبل المواجهة العسكرية إزاء دولة عظمى إلاّ الكلام ومحاولات حشد التأييد الدولى لعلّ وعسى، وأخرى يرى قادتها أنّ العالم ملك أيديهم وليس لأحد أن يردّ عليهم ولو بالكلام، يلهث صاحبنا باحثا بين إذاعة وأخرى، يسمع خبرا من هنا فتتصاعد آماله فى أن تهدأ الزوبعة ويحلّ الإشكال بممارسة السياسة اللينة وتحكيم العقل ويعود بذاكرته إلى ذلك البناء الشامخ الصقيل وتلك الأزهار المتفتحه والحماس المتدفق، فيقول إنّها سحابة صيف سوف تنقشع،

ويتفرغ الناس إلى ترتيب شؤون البيت إذ لا قبل لهم بالحرب فى هذا الوقت رغم ما تختزن الذاكرة الوطنية من أمجاد ماضية حيث كان أجدادهم قد خاضوا حربا وطنية على مدى ثلاثة عقود ضد دولة أوربية كبيرة فى زمن مضى، وهو يدرك أن الحرب إذا حدثت لابد أن تدمّر البلد وتعطل التطور ومشاريع البناء المأمول فى إعداد الطرق والمدارس والمساكن ودور العبادة والمستشفيات والمزارع الخ.. حيث رفع شعار يد تزرع وأخرى تبنى، ويأتيه خبر آخر يهبط به إلى ما تحت الأرض، إنّه الخراب واحتراق كل شئ، لا زرع ولا ضرع، ويظهرذلك الحماس فإذا هو صراخ فى واد عميق يرد على نفسه بصداه، وتدّق طبول الحرب فيظهر أن الهجوم متوقع فى كل لحظة وان الخطط جاهزة للتنفيذ والوقت سريع كدقات القلب، التهديد بالكلام متواصل من كل طرف وكما يقال لا شئ يولد ما هو اكبر منه الا الكلام فكل كلمة فى الوقت الحرج تلد ما هو اكبر منها، كلام وتهديد من الجانب الآخر من البحار، وهى بحار عميقة واسعة بعيدة ولكن اليد طويله والعدو متوثب والعقل طائش تملأه خرافات البطولة وصهيل الخيول وطلقات الرصاص السريعة وزهو الانتصار وحديث السيدات المسربلات فى اثواب طويلة امام البيوت الخشبية ومدخل البار ذى الابواب التى تنفتح عندما تدفع ثم تعود تلقائيا لتنقفل، العدو بعيد ولكن صهيل الجياد يسمع ونشوة الخمر لم تتبخر وهى تدفع الى المغامرة بخيلاء وغطرسة، ومن هناك على حافة الوادى الممتد الى الافق البعيد الرغبة الجامحة فى السير الى ابعد من مرمى النظر اذ ان طبيعة الصحراء تحفّز على الاستقلال وعدم القبول بالقيود وحرية التمتع بامتداد النظر فى ارض منبسطة لا متناهية وسماء صافية لا حواجب قبلها ترفض ان تهرب امام الزواحف الآتية من شمال البحر، قيل قديما ان اليد لا تعاند الخنجر، وقيل ان الحديد ينكسر ولا يلين او يعوّج، ولكن ما العمل ؟؟

صاحبنا المغترب يحرك اصبعيه بين مؤشر هذه المحطة وتلك، ماذا هناك، مظاهرات صاخبة رغبة فى قبول التحدى، اصوات متداخلة، ننتقم، نقاتل، لا نخشى الاساطيل، لا ترهبنا الزواحف وهدير امواج البحر، وعندما يعلو الصوت كثيرا يخشى الانسان العواقب، يهتز تفكيره وتميد به الارض، ماذا عن الوطن ؟ الكرامة اولا، يقول واحد، العقل قبل شجاعة الشجعان، وماذا عن الطرف الآخر فالامواج تدفع الطحالب والزواحف الى الشاطئ الهادئ، صهيل الخيل وصرير الحديد يسمع، رائحة الغدر تتصاعد ولكن الانوف شامخة، ماذا يجرى ؟

من لندن صوت اجش يقلّب الامور ظهرا على بطن وقد علّمنا انه لا يقول للاحمر احمر ولا الاسود اسود، يعلن ان الرياح غربية عاتية ولكن الطيور على الارض هادئة ولن تطير، فى واشنطون ذلك الصوت البعيد القريب واليد تقبض على رقاب العالم حتى الموت بقفّاز حريرى، موسيقى صاخبة وطبول عالية الصوت ونغمة لا تخلو من الغدر وعقل تربى على انتهاك الاعراض، فى باريس، فى روما فى برلين، فى مدريد، حب خفى يرغب فى ممارسة الخيانة دون ان يكشف عنها، فى الغرب القريب كما يقول المثل الشعبى (ان أكلت البصل كثّر) بمعنى انه اذا كان قد تقرر العدوان فليكن قاتلا وبعدئذ لاباس من الشجب والادانة فالحقد الدفين على الجار القريب قد بلغ الذروة، فلا رجعت ولا رجع الحمار، فى الشرق، اى شرق، صوت عال وجوف خال، وكما يقول المثل الشعبى الليبى (طار الحمام وصفقى يا وزّه)... مازالت الاصابع تجر مؤشر الراديو بحثا عن خبر او أخبار، ماذا يحدث الآن ؟ وما الذى سيحدث غدا وكيف تكون الامور وما هى النتائج ؟ غالب ومغلوب، جبال من الحديد تعوم فوق سطح البحر، ومن الجانب الآخر عيون مثبتة على شاشات تراقب كل الذى يجرى وهى لا تعلم على وجه التحديد ماذا سيحدث، هل سينطفى بريقها بعد دقائق او ساعات ؟ واصابع على الازندة والازرار والمقابض متربصة

يحمّسها المثل القائل، الحياة لحظة عز، يترك صاحبنا الراديو ويخرج وهو المتحرّق على سماع الاخبار وتخمين ما يمكن ان يحدث، لم يطق لحظة صبر بعد ان مال بمؤشر الراديو فى اتجاه اليمين ثم عاد به فى الاتجاه الآخر، خرج لعله يجد الخبر اليقين، الطقس يميل الى الحرارة فى بداية هذا الموسم لكنه لا يعلم على وجه اليقين ما الفرق بين طقس البيت والشارع وكل الذى فكر فيه هو ان يخرج من البيت الى اى مكان، فالوطن اعزّ على القلب واعمق فى الوجدان عندما يكون الانسان بعيدا، ان الوطن كالابن الغائب لا يهدأ بال الأب الا اذا عاد معافيا سليما، ولابد ان الوطن بخير لا يهزّه شبح الخطر، ذهب وفى ذهنه اولئك الشباب ذوى الحماس البالغ والخبرة القليلة وذلك الاعلام الذى يخلق من الحبة قبّة دون ان يراها احد، لم يكن قد فطن الى قميصة الذى ارتدى فوقه الجاكيت الا بعد ان دخل بيت احد الاصدقاء، جلس شاحب الوجه مهموما وقد قابله ذلك الصديق مرحبا وهو يضع بين اصبعيه لفافة تبغ وينظر اليه باستغراب وقد عرف عنه الاهتمام المبالغ فيه بلباسه، فطن الى انه كان يرتدى قميص النوم (البيجامه) فاعتذر بكلمات متلعثمة وودّ لو انه لم يأت فهذا الصديق لا يظهر عليه الاهتمام بما يحدث فى بلاده، نفث كلمات سريعة كالمدفع الرشاش بحنق شديد، هل تابعت الاخبار وما هذا الذى يحدث ؟ اننى اتصور ذلك الرئيس الغربى وهو يمسك زجاجة الخمر فى يده اليسرى ويمسح فاهه بعد جرعة طويلة بكم يده اليمنى التى تقبض اصابعها على مسدس طويل جاهر للاطلاق، كافلام هولوود وراعى البقر (الكاوبوى) .. رد الصديق بهدوء. .قلنا لكم من زمان (اليد ماتعاندش الموس) والحماس المبالغ فيه يؤثر على العقل وتدبر الامور بروية وهدوء، ثم سكت بعد ان نفث كثيرا من دخان السيجار فى الهواء، وبعد هنيهة اضاف، هيه، سوف نرى، قلتم لنا زمان عن الظافر والقاهر ووالخ وكانت النتيجة كارثة، لا ظافر ولا قاهر بل قهر وازدراء ومبالغة فى كل شئ ثم تبرير وبطش وقهر، توقف

عن الكلام وقد رمى بالسيجار وزمّ شفتيه. .حاول صاحبنا ان يزدرد ريقه ولكن جفّ الحلق وكان من الممكن ان يكون الرد على مثل هذا المخلوق بالغ الحدّة فاى موقف هذا والوطن فى خطر ؟ !ولكن ما فائدة الكلام مع امثاله وبات من المؤكد اعتباره كبقية الشامتين او كالذين يدبجون الخطب عبر بعض الاذاعات ليذكّروا الناس بان كل حدث له سبب وكل مخاطرة لها عواقب وكل تعجّل غير محمود، وان البلدان الصغيرة يجب ان تبقى منكمشة، ونهض ليخرج مرة اخرى الى الشارع او لعله يعود الى البيت لمتابعة الاخبار بالراديو، يودعّه الصديق بنظرات شامتة ولهجة ساخرة، يا سيدى كلها ايام وتتضح الامور فلا داعى للقلق وللوطن رب يحميه. .

هكذا للوطن رب يحميه ويجب ان نلقى ما فى ايدينا فاين نحن من عمالقة العصر؟

وقال له ردا على ذلك، نعم للوطن رب يحميه ولكن بايدينا ولعلك سمعت (اعقلها وتوكّل على الله) يرد الصديق، ها قد بدأت تتفلسف. . فكر فى المرور على صديق آخر ربما اطفأ لهيب الحزن والحيرة المتأججة فى صدره بكلمات، ولكن ربما زاد هذا من ألمه وحزنه، يشعر بألم شديد عندما طاف بذهنه ان كل الذين يعيشون بعيدا عن الوطن يفقدون حب الوطن، وسرعان ما استبعد هذا الطارئ اذ ربما يكون هناك من يتألم اكثر منه الآن، ربما ؟ وهل يجوز له ان يغرق فى احزانه فلا يستطيع تصوّر ما سوف يحل بالوطن وماذا عليه ان يعمل ؟ تمر بالذاكرة احداث ماضيات، تلك الحروب العديدة والبطولات النادرة دفاعا عن الوطن بوسائل وادوات بسيطة امام جحافل الغزاة بقضّهم وقضيضهم، هل سمع العالم عن انسان يعقل رجليه الاثنتين وهو قاعد فى متراسه يحمل بين يديه سلاحا بدائيا امام دبابة مزودة بمدافع ورشاشات ؟ يعقل رجليه لكى لا يفكر اطلاقا فى ترك مكانه ولا يعتريه الخوف او حتى مجرد التفكير فى ترك مكانه الى ان يوقف الدبابة وهذا نادر او ان تمر بجنازيرها على جسده وهذا كثير ومتوقع،

لكنه شهيد الوطن، ثم يعاود التفكير، اين نحن من اولئك الرجال الذين آمنوا بالله والوطن ؟؟ ومصيبتا الآن هى، البترول. الدولار. الملابس.. المكيفات.. فقدان الايمان.. التخلى عن المثل والاخلاق.. وكل وسائل الراحة الطارئة، هذه الامور الطارئة والزائلة هى التى تجعل الانسان جبانا، وتجعل الانسان طمّاعا، والطمع نوع من الجبن ومن يطمع يبيع كل شئ بما فى ذلك الوطن واشياء اخرى كانت غالية وعزيزة يموت الانسان العربى المسلم دون التفريط فيها او التخلى عنها ولو للحظة !! تظهر امام عينيه ملامح بيت كانت له مع سكّانه ذكريات وايام سعيده، ولكن ماذا عن الاخبار وما الذى سيحدث ؟ واى سعادة يمكن ان تدغدغ احساسه الآن فى ظل هذا اللا معقول ؟

عرّج على بيت الصديق القديم، صديق كان على علاقة به منذ زمن وكان يمكن ان تكون علاقة الصداقة هذه ذات صلة اوثق وهى المصاهرة اذ كان يعتزم الزواج من ابنة الصديق القديم هذا، انه رجل يتّصف بالحكمة وسرعة البديهة ورجاحة العقل والتأنى والتفكر بهدوء عند الحكم على الاحداث والاشياء. طرق الباب ولم ينتظر طويلا حتى فتح له واذا بالصديق القديم يقف امامه مرحبا، كان يرتدى ثوبا طويلا ابيض عادة ما يرتديه الليبيون فى بيوتهم وخصوصا خلال الاشهر الحرم اذ عندهم لها هالة من التقديس والاحترام، رجل طويل القامة ذا وجه مبتسم دائرى وشعر ابيض مسترسل ومنكبين عريضين، قال بهدوئه المعتاد ولعل فى ذلك اثر لشيخوخة ظاهرة، اهلا وسهلا، تفضل.. دلف الى الداخل بعد ان حياه وشكرة على الدعّوة، جلس على اول مقعد كان امامه ولم ينظر مباشرة فى وجه الشيخ الذى تبعه، واضعا راحة يده تحت ذقنه مكفهر الوجه حائر البال، وقد تظاهر الشيخ كمن كان يتوقع الزيارة وان كان قد لاحظ ان صديقه فى حيرة من امره مهموم الملامح بادئ القلق على غير ذى استقامة فى هيئته، تظهر ياقة قميص البيجامه من فتحة رقبة سترته، بادره بالسؤال، خيرا ياخى ؟ ماذا

بك ؟ ثم اضاف هلا فضلت شاى ام قهوى ؟ نظر الصديق لأول مرة بعد ان دخل البيت فى وجه صاحبه شكرا يا حاج آسف للازعاج واعتذر على مظهرى غير المناسب، ينظر الى صدره لتقع عيناه على ياقة البيجامه.. لابأس ياخى، المهم انك بخير، سوف نتحدث بعد تناول القهوة

ينادى، يا فوزية.. تظهر من الباب الجانبى امرأة فى العقد الثالث من العمر ذات شعر اسود فاحم يتدلى على الكتفين المتناسقين وينحدر طويلا فى تناسق ليشكّل هالة سوداء حول وجه ابيض قمرى الاستدارة وعينان سوداوان كعينى غزال لا يكاد يظهر فيهما بياض كبقية الناس، يفاجأ الصديق بظهور فوزية السريع، يقف محييا يعانق عينيها بنظرة مباشرة وتعود به الذاكرة الى زمن فات، زمن طويل يكاد يعدّه قرن من الزمان لطول اشتياقه لرؤياها واعتقاده بانه ما كان يمكن ان يفرّق بينهما الا الموت.. بخجل شديد وهو يدرك انها فوجئت بوضع ملابسه وقد عرفت عنه العناية الفائقة بما يلبس والحرص الشديد على تناسق تلك الملابس ومطابقتها للموظة، قال اهلا يا فوزية لعلك بخير.. أجابت وقد اشاحت قليلا بوجهها جهة والدها، الحمد لله، كيف حالك انت والاولاد ؟ حاول ان يقول شيئا ولكن الكلمات تلاشت وجفّ حلقه بينما حاول ان يحرك شفتيه، نظر اليها مرة أخرى فتلاقت عيناهما، احس بكآبة لا مثيل لها وألم يعتصر امعاءه فتساءل فى داخله، لماذا جئت الى هنا أما كان يكفى الحالة التى انا فيها ؟ أما كان يكفى ما سمعته من الليبى الذى زرته منذ ساعة، ذلك الانسان الذى لا يحس بما يجرى من احداث وما يواجه الوطن، كنت حزينا لما يواجه وطنى فصرت حزينا لما يختلج فى فؤادى ويسير فى شرايينى كالكهرباء... ظلت فوزيه واقفه سأله الصديق بان يجلس وطلب من ابنته اعداد القهوة، ثم أردف قائلا، أراك ايها الصديق مهموما فقد فاجأتنى بمظهر ملابسك امام الباب واكفهرار وجهك وفاجأتنى بحيرتك وتلاشى الكلام من فمك داخل البيت، ولم يمهله فاضاف، افهم سبب الثانى ولا افهم سبب الأول. اجابه

بعد ان اطرق قليلا مفكرا كيف يبدأ، قال: أنت تعلم ماذا حدث منذ ايام فى خليج سرت وكيف ان الامريكيين قصفوا منشاءاتنا بالصواريخ وكيف انهم يهددون الوطن الآن بتدخل عسكرى مباشر ويحشدون الاساطيل امام شواطئنا، سكت قليلا ثم أضاف، إنّنى أعرف أنّ سياستنا لا تروق لهم وأعرف أنّ كلمة اشتراكية تثيرهم برغم ان اشتراكيتنا هى فى الواقع ليست اشتراكية واعرف انهم يتآمرون علينا لمجرد اننا نرفع شعار الوحدة العربية، اعرف الموقف الامريكى وغيره منذ اشتغلت بالسياسة كما تعلم لكن ما لا اعرفه، اولا، هذه التهيئة الاعلامية الغربية وكأن اوربا الغربية لا مصالح لها فى بلادنا، وثانيا هذا السكوت العربى الاعلامى المطبق وكأن تهديد ليبيا حدث فى واق الواق، وثالثا سعادة بعض الليبيين بان تهدم بلادهم بواسطة القنابل والصواريخ الامريكية وكأنهم ليسو من ليبيا ولا علاقة لهم بالبلاد واهلها وان لم يكن لهم احد هناك فعلى الاقل لابد ان لهم بعض الاصدقاء والجيران،

يتوقف عن الكلام لحظة ثم يواصل، كنت عند احد الاصدقاء الليبيين منذ ساعة ووجدته فى حالة نفسية غاية فى الغرابة وكأن شيئا لا يحدث فى بلده بل انه لم يكّلف نفسه حتى مجرد المواساة، فرأيته يتحدث عن الحماس المبالغ فيه وعدم التريث والروّية، الخ هذه التعبيرات، اننى لا اكاد افهم ماذا يقول عنا بقية الناس ؟ اى قيمة لأنسان بلا وطن واى قومية بلا وطنية واى كرامة بلا احساس ؟ وتوقف عن الكلام الذى كان يتدفق سريعا بينما دخلت فوزيه بالقهوة، وضعت فنجان القهوة الاول امامه وكان يركّز نظره على اصابعها التى تمسك بالفنجان وتلك الانامل التى يكاد الانسان يرى العظام بداخلها، أنامل بيضاء كالبللوّر طليت اظافرها بلون وردى احمر، وعندما وضعت الفنجان الثانى امام والدها مالت برأسها دون قصد، ربما ؟ فتدلى ذلك الشعر الفاحم الطويل حتى لامس المنضدة المستديرة الصغيرة التى كانت بينهما، روّح عليه هذا المشهد قليلا فهدأت ثورته وراح يتحدث

بهدوء دون ان يمس القهوة، ان الولايات المتحدة الامريكية تهدد بانها ستضرب ليبيا بالقنابل والصواريخ وهى تتحدث الآن عن مكافحة الارهاب وكأنها ليست هى الارهابية فعلا، هل نسى هؤلاء ماذا فعلوا فى فيتنام بل فى كل الهند الصينية ثم فى امريكا اللاتينية ؟ فى غرينادا وفى تشيلى وفى نيكاراغوا ؟ انهم يأتون بالعملاء ويدعمون حكمهم ليبتزوهم ويسرقوا خيرات بلادهم ثم يتآمروا عليهم ليأتوا بغيرهم من العملاء الجدد ! لقد رأيت ما حدث لشاه ايران ثم دوفالييه ثم ماركوس وقبلهما نميرى وبعده السادات، هل رأيت كيف انهم يقدّمون العون لبينوشيت فى تشيلى وعصابة الكونترا فى نيكارغوا بينما يهددون ليبيا ؟؟!! كان الحاج قد انتهى من تناول القهوة وكان يرشفها بصوت عال كأنه يتمتع بذلك وهو ينصت باهتمام بالغ لكلام صديقه المتتابع كطلقات المدفع الرشاش، وقبل ان يتكلم دعى هذا الصديق لأن يحتسى قهوته لأنها بردت كما قال، ثم تنهد وكان يحك صدغه وينظر الى صورة جمال عبدالناصر المثبتة على الحائط قبالتهما فى برواز ذهبى جميل، كان بادئ الاهتمام والقلق لكلام صديقه وقد برزت تجاعيد وجهه اكثر بينما كان يفكر فيما يرد به، ألتمعت عيناه السوداوان الواسعتان وان كانتا قد غشاهما شئ من الذبول واحاطتهما التجاعيد ولعل ابنته قد ورثت عنه جمال تلكم العينين السوداوين، مد رجله اليمنى قليلا وقال، ايها الصديق انها مؤامرة دولية كبرى ولقد حدث مثلها سنة 1956م على مصر جمال عبدالناصر ذلك الزعيم العظيم الذى اراد ان يوحّد العرب وان يبنى الدولة العصرية الحديثة، وقبله حدث نفس الشئ لمحمد على الكبير برغم انه لم يكن فى مستوى عبدالناصر ولم يكن حتى عربيا ولكنه اراد ان يبنى مصر وان يقيم الدولة الحديثة وجعل مصر تتمدد يمنة ويسرة فى الشام والجزيرة العربية ومن الجانب الثانى فى السودان وافريقيا، كلاهما كان يمثل خطرا على المصالح الدولية، ولكن دعنا نتساءل الآن ما الفرق بين مصر عبدالناصر وليبيا فى عهد العقيد القذافى، حاول صديقه ان يقاطعه فرد

بايماءة من يده، ارجوك دعنى أتحدث فلقد خبرت الدنيا اكثر منك وان كنت لم اعمل بالسياسة وها انا ابلغ من العمر كما ترى، يلامس بيده شعر رأسه الابيض الطويل، اذا افترضنا ان امريكا وهى دولة عظمى سوف تعتدى على ليبيا وتستخدم كل قواتها البحرية والجوية الموجودة الآن قبالة الشواطئ الليبية فمالذى سيحدث ؟؟ أولا، لابد انها تريد التخلص من العقيد معمر القذافى وهى تدرك بلا شك ان ذلك لن يحدث إلا اذا قتلته ولهذا فهو الهدف الأول، أمّا الهدف الثانى فهو تدمير المشروع الوطنى وذلك بالطبع يخدم اغراض امريكا وغيرها، والهدف الثالث ان تجعل الآخرين خارج ليبيا يتحسسون اطرافهم فاذا كانت امريكا قد فعلت هذا مع ليبيا فهى قادرة على فعله مع اولئك، والهدف الرابع هو القضاء نهائيا على مطلب الوحدة العربية ومساندة حركات التحرر وذلك ما تسميه امريكا ارهابا، والهدف الخامس ان تجعل الليبيين يندمون على ما صرفوا من اموال فى التسليح والصناعة وان يكفروا بالعلاقة مع الاتحاد السوفييتى، ولربما طرأت الآن فى ذهنك عدة اسئلة، كأن تقول ماذا عن العرب ؟ العرب كشعوب وحكام، وماذا عن الاتحاد السوفييتى كدولة عظمى لها ايضا مصالح دولية وقد يهمها اصدقاؤها ؟

وربما تعتقد ان الشعب العربى الذى شجب العدوان على خليج سرت انما هو موقف عربى رسمى حقيقى فأقول لك، اولا ان العرب بالتأكيد يريدون التخلص من العقيد القذافى كما كانوا يريدون التخلص من جمال عبدالناصرأثناء عدوان سنة 1956م وقد فعلوا الكثير وقتئذ لكنهم شجبوا العدوان لأنه لم يسقط عبدالناصر ولأنهم الآن يخشون ان يحدث العدوان ويبرز القذافى كما برز جمال عبدالناصر بعد عدوان سنة 56م بطلا وطنيا وقوميا وعالميا ولهذا فانه لو امكن لأمريكا ان تؤكد لهم انها لن تتوقف الى ان تسقط القذافى فلسوف يؤيدونها بكل تأكيد، اما الاتحاد السوفييتى فهو لن يفعل شيئا اكثر من الادانة والشجب واذا لم يسقط النظام فهو سيقدم

المساعدات الفنية والعسكرية مجددا ويقبض الثمن لأنه لا يمكن للاتحاد السوفييتى، ان يدخل فى مواجهة مع الولايات المتحدة الامريكية وهذه ايضا من جانبها لا يمكن لها ان تدخل فى مواجهة عسكرية معه لانهما يمكن ان يدمرا العالم وكلاهما يحسب الف حساب للآخر وذلك الحساب هو ان لا تحدث المواجهة بين العملاقين، والذكى هو الذى يستطيع ان يستفيد من هذا التناقض والخوف من الحرب العالمية الثالثة وهى التى لا يمكن ان تحدث مهما كانت الامور، يبقى ان اقول لك، يتوقف برهة عن الكلام، تلوح إلتفاتة من جانب صاحبنا فتقع عيناه على فوزيه وهى تجلس امام جهاز التسجيل ولابد انها تبحث عن اغنية تلطف الجو المشحون بالكلام السياسى المثير الذى ما كانت يوما تحبه لأنها كانت تقول دائما ان لا فائدة من الحكام العرب لأنهم متخلفون عن شعوبهم ولأنهم لا يقرأون ولا يحبون العلم والتعليم، عاد الحاج مستأنفا حديثه، ان الولايات المتحدة ورئيسها الحالى الذى جاء الى كرسى الرئاسة بعد الرئيس كارتر يدرك تماما ان الشعب الامريكى يحب المغامرات كما يحدث فى افلام هوليوود ولهذا فهو لن يتراجع وسوف يقوم بعمل عدوانى ضد ليبيا وهذا العمل لابد ان يستهدف كل شئ فى ليبيا وخصوصا المنشاءات العسكرية. . ثم عاد يحك صدغه وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه وقال، برغم اننى لست متفائلا بالنتائج فان لشعبنا رصيد كبير فى الدفاع عن النفس، ومع انسياب صوت هادئ مألوف من اغنية مفضلة أطلت فوزيه تسأل ما اذا كانا يرغبان شاى او قهوة واردفت قائلة، ألا يوجد حديث آخر غير السياسة وأهلها وكأنها كانت تدعو الزائر لتذّكر الماضى، ويسأل الحاج ضيفه ما اذا كان يرغب فى تناول شاى او قهوة فهز هذا رأسه بالايجاب قائلا، ربما شاى افضل، ومع صوت الاغنية المفضلة والمحببة تشعب الحديث عن الماضى وذكرياته وكيف كانت الايام المنصرمة اجمل من الحاضرة، كان صاحبنا ينصت باهتمام الى كلمات الاغنية العاطفية وكانت الكلمات كالابر التى توخز القلب،

ام كلثوم واغنية (ذكريات)،عاد الى البيت بعد ان ودّع صديقه وشكره على تعاطفه وحماسه للوطن وودع فوزيه بنظرة معتذرة، لاحقته كلماتها التى زلزلت قلبه، سلامى الى ابنائك، عاد يجر رجليه وكأنه يحمل اثقالا برغم ان جسمه نحيفا، وربما كانت هموم القلب اثقل من الجسم ؟ كان يردد فى داخله، لا شئ يساوى ذرة من تراب الوطن، وياحرقة القلب من غربة الجسم . .

(2)

تقول وكالات الأنباء العالمية التى جندت امكانياتها الفنية والعلمية لنقل الاخبار الى كل ركن من اركان العالم كالعادة فى مثل هذه الازمة، ان حاملة الطائرات الامريكية الذرية (أمريكا) قد انضمت الى الحاملة الأخرى (كورال سى) وهى ايضا ذرية وتقود عددا من القطع البحرية فى اتجاه خليج سرت وان الرئيس الامريكى اعلن ان الولايات المتحدة الامريكية لن تسمح للقذافى بتنفيذ قراراته وان حرية البحار لابد ان تكون مكفولة لكل دول العالم بما فيها خليج سرت، الليبيون يعلنون انهم سوف يدافعون عن بلادهم وان هناك خطا اسموه مزاجا (خط الموت) لا يمكن تجاوزه، تبدأ التحركات فى القواعد الجوية الامريكية فى كل مكان، ولأول مرة يسمع العالم عن الطائرة الامريكية القاذفة (ف 111) القابعة فى القواعد الامريكية فى بريطانيا والتى تحمل كل منها اربعة عشرة طنا من الصواريخ والقنابل وقد برمجت بالكمبيوتر على الأهداف الليبية كما تقول تلك الوكالات، الليبيون يتظاهرون بالالاف فى شوارع مدنهم تأييدا لقيادتهم واحتجاجا على التهديدات الأمريكية، يحملون شعارات معادية لأمريكا ويهتفون ضد الرئيس ريغان، العالم يمسك انفاسه، سعر الدولار يهبط، وسعر النفط يرتفع، أحد الملوك العرب يتحدث بالهاتف الى ملك عربى آخر . .الأول، ماذا هناك؟ هل ستفعلها أمريكا هذه المرة ونرتاح ؟ الثانى، يظهر ان الأمريكان لا يعرفون تماما ما يجب عمله ؟ الأول، إنهم بالقطع سوف لا يتدخلون الا اذا تأكدوا ان نظام القذافى سوف ينتهى فلا يمكن

لأمريكا ان تخاطر بمصالحها فى ليبيا. . الثانى، امريكا هكذا لا تفكر الا فى مصالحها فلقد شجّعت بريطانيا وفرنسا واسرائيل بالعدوان على مصر سنة 56م ثم تخلت عنهما لأنها ارادت بذلك ان يبقى عبدالناصر وان ينتهى النفوذ البريطانى والفرنسى من المنطقة لتحل محلهما ولكنها قضت على نفوذ الدولتين ولم تتمكن من الاحلال محلهما لأنها لم تكن تعرف كيف يمكن ان يتصرف جمال عبدالناصر مع الفارق بين مصر وليبيا. . الاول، مصيبه اذا كانت ستفعل نفس الشئ مع القذافى فهل تريد فقط ان تحل محل السوفييت ام انها تريد تجريب انواع جديدة من اسلحتها ؟ الثانى، فيما اذكر انه لا يوجد هناك سوفييت وربما هناك نفوذ سوفييتى ولكن شركات البترول الامريكية ماتزال تعمل هناك وان ليبيا تستفيد من ذلك، وربما تريد أمريكا فقط ان تقوى موقف القذافى امام معارضيه، ويقال ان هناك معارضة قوية، وقد ابلغنا اصدقاؤنا الانجليز بان الجيش الليبى قد يطيح بالقذافى اذا لم تتدخل امريكا. . الاول، لعلهم يعرفون ولكنهم يريدون القذافى اذ ربما يخدم مصالحهم ونحن نعرف ان الثوار يقولون ما لا يفعلون. . الثانى، ماذا يمكن ان نفعل فنحن امام شعوبنا محرجين وقد يحدث ما حدث سنة 56م فهؤلاء الذين يقولون انهم ثوار يهيجون مشاعر الناس. . الاول، لن يحدث شيئا الا مزيدا من رفع الشعارات وقرع الطبول. إذاعة المعارضة الليبية فى نشرة اخبارية تقول، ان امريكا باستعراض اساطيلها لا تهدف إلا الى خدمة القذافى لأنه الآن ضعيف فى الداخل وان الجيش الليبى يتململ والمعارضة لها رجالها فى الداخل وعندما شعرت امريكا بذلك حشدت اساطيلها وكأنها تريد ان يشعر العالم بانها ضد القذافى وأنها تريد اسقاطه، وان المعارضة قد اصدرت منشورا توجيهيا لقواتها فى ليبيا. . مواطنان ليبيان، الاول، هل سمعت اذاعة تسمى نفسها اذاعة المعارضة الليبية ؟ الثانى، لا والله، واين هذه الاذاعة وماذا تقول ومن هؤلاء الذين يعارضون ؟ الاول، لا اعرف اين لكننى سمعت اذاعة تقول ان امريكا لا

تريد اسقاط القذافى بل هى تساعده وتقويه. . الثانى، اذا كان الامر كذلك فشكرا لأمريكا لاننا لا نريد تدمير بلادنا. . الاول، المعارضون هؤلاء عديد من الناس وكل منهم كما يقول له تنظيم او جبهة. . الثانى، واين يعيشون ومن الذى يساعدهم ؟ الاول، لا تحكى عن المساعدات فذلك شئ بسيط وبديهى، فانت لا تحتاج امام هؤلاء الحكام العرب الا ان تأتى الى واحد فى هذا البلد او ذاك لتقول له انك مناضل وانك ضد نظام الحكم العربى الآخر وان لديك امكانيات العمل السياسى والعسكرى وسوف تعمل من اجل اسقاط ذلك النظام لتجد كل الابواب مفتوحة أمامك ويعتبرون أنك مناضل من أجل الحرية! والحرية بالطبع لا وجود لها لأن كل حاكم عربى يدعّى انه يعمل من اجل الحرية وسعادة الشعب وهو لا يطيق كلمة نقد واحدة ولا يستطيع اى من مواطنيه فتح فمه بكلمة ضد ممارساته. . الثانى، أليس أمريكا هى التى تدفع والمخابرات المركزية ؟ الاول، المصيبة ان الكل يعملون لصالح امريكا والمخابرات المركزية الامريكية او غيرها ولكن الذى يدفع هم الحكام العرب وبالتالى فان المال العربى يتآمر على الوطن العربى !الثانى، لا افهم. . . الاول، خذ يا سيدى مثالا، المعارضة الليبية تعمل فى عدد من البلدان العربية وتحصل على اموالها ومكاتبها من انظمة تلك البلدان العربية لمجرد ان تلك البلدان على خلاف مع النظام الليبى، وانت تعرف ان كل بلد عربى ضد الآخر وكل ملك او رئيس عربى يمسك برقبة الملك او الرئيس الآخر ويريد اسقاطه لا لشئ إلا لخلاف شخصى. . الثانى، ولماذا وعلم ؟؟ الاول، هناك ياخى الخلاف العقائدى والطائفى والقبلى والعشائرى، هذا شرقى وذاك غربى، وهذا تقدمى وذاك رجعى، هذا مسلم سنى وذاك مسلم شيعى، وهذا مسلم شيعى والآخر ارثودوكسى أو كاثوليكى الخ. . الثانى، هل هذا ينطبق على كل الشعوب العربية ؟ الاول، ومتى كان للشعوب العربية صوت او رأى ومن الذى يهتم بها ؟ فهذا ملك ورث الحكم وقد يسمى نفسه ولى الله فى الارض وذاك رئيس

وصل بانقلاب عسكرى ثم صار اميرا للمؤمنين، والآخر وصل الحكم عن طريق قبيلة او بعض المرتزقة وبالتالى حكم بالحديد والنار، وكل هؤلاء يخدمون مصالح اجنبية ويقهرون شعوبهم. الثانى، ألا يفكر هؤلاء فى الموت وماذا سيحدث بعدهم ؟ الاول، لعلهم اخذوا بمقوله بطرس الثالث القيصر الروسى، الذى قال، بعدى فليأتى الطوفان.. الثانى، أولم يأتى الطوفان بعده ؟ الاول، لقد اتى الطوفان ولكن ليس بعده، بل فى وجوده وقد حبسه الفلاحون الذين كان ينكل بهم، حبسوه فى زريبة حيوانات هو واطفاله ثم قتلوهم فى نفس تلك الزريبة. الثانى، وعن المعارضة الليبية، هل هؤلاء فعلا معارضون ولهم تاريخ فى العمل السياسى ؟

الأول، بضحكة باهتة، خذ يا سيدى أحد هؤلاء تعلم فك الأحرف الأبجدية العربية بعد ان هرب من ليبيا وكان قبل الثورة يعمل مقاول نقل فى واحدة من شركات النفط الأمريكية وآخر ما وصل اليه انه امتلك كسارة حجارة من اجل ان يبيع الزلط لمقاولى البناء، هذا المناضل هو زعيم واحدة من المنظمات التى تريد تحرير ليبيا وهو الآن يعيش فى قصر بواحدة من البلاد العربية المجاورة ويحرسه عدد كبير من الجنود المدججين بالسلاح خوفا على حياته واغلب الآخرين على نفس المستوى...

الثانى، ولكن هناك من يمارسون المعارضة لأسباب سياسية ولهم تاريخ سياسى

الاول، قد يكون ذلك صحيحا، ولكن المعارضة السياسية اذا كانت ضد اى نظام فلا يجب ان تكون ضد الوطن والمواطنين وفى هذه الظروف فان المقياس وطنى وليس سياسى.. اذاعة اجنبية تقطع برامجها لتعلن ان طائرات الاسطول السادس الامريكية قد اغارت على المدن الليبية بعد منتصف الليل وانها قصفت المعسكرات والمنشاءات العسكرية وكذا مقر العقيد القذافى، إذاعة صوت امريكا باللغة العربية توجه نداء الى الشعب الليبى تقول فيه ان امريكا لا تعادى الشعب الليبى ولكن العقيد القذافى

ارتكب كثيرا من الاعمال التى اغضبت امريكا وان الطائرات ارسلت لمعاقبته وقد ضربت مدينة بنغازى وطرابلس.. وعادة فان ليل بنغازى صحو جميل أثناء شهر ابريل وليس للناس شئ كثير يسهرون عليه وهم يأوون الى بيوتهم عادة قبل منتصف الليل بعد نزهات فى الحدائق المحيطة بالبحيرات الداخلية، تلك البحيرات الطبيعية التى تلامس عنق المدينة الهادئة دائما، ولقد شهدت مدينة بنغازى هذه الكثير من الغزوات البحرية مثلها مثل طرابلس وغيرها من المدن الليبية الاخرى فى ازمان سابقة ومرت عليها كثير من الجحافل العسكرية ولكنها بقيت عربية اصيلة نقية يظهر ما فى قلبها على صفاء وجهها، ولقد فوجئ سكانها الآمنون بازيز الطائرات وانفجار القنابل والصواريخ فسارع من لم تردمه انقاض سكنه الى الخروج، امتلأت الميادين بالاصحاء المفجوعين والمستشفيات بالمصابين وتحولت السماء الى بريق وشهب متقاطعة متلاقية متصادمة وقد ارتفع آذان الفجر من كل المساجد، الله اكبر الله اكبر.. كان المواطن عمر الذى بترت يده اليمنى فى المستشفى وكسرت رجله وهو نائم فى بيته عندما اصابه صاروخ مندفع من السماء، كان يقول لا اعرف ما الذى حدث، لقد كانت ليلة عرسى وكنت اعد نفسى لقضاء شهر العسل فى بلد مجاور وسهرت مع زوجتى اناقش تكاليف الرحلة والمدة التى سنقضيها فى ذلك البلد وما اذا كان من المفيد قضاء كل المدة فى مكان واحد ام فى اكثر من بلد، وكانت زوجتى تحلم برحلة ممتعة ولقد قفزت فى الهواء فرحة عندما ابلغتها باتمام اجراءات السفر، قالت انها ستقضى معظم وقتها بين الزهور وكل ايامها بين معالم وحدائق ومتاجر هذا البلد، اليس ذلك من حقها فى شهر العسل ؟ يتوقف عن الكلام فى حين غالبته دمعة تنحدر على الخد من عين ذابلة حرقت اهدابها وجفونها، ثم اردف قائلا وهو يحاول ان يحرك يده الملفوفة فى قماش ابيض، آه لقد لاقت ربها فى اول ليلة من عرسنا ولعلها ستكون بين الازهار فى الجنة، ولينزل الله عقابه بالذين قتلوها ليلة فرحتها تلك. طفلة

صغيرة لما تبلغ الثامنة عشرة شهرا من عمرها بعد ان انفجرت اذنيها بسبب ضغط الهواء ماتت من وقتها، اشلاء وحطام ودوى انفجارات وحرائق، ما الذى حدث ؟ أهى حرب عالمية ام ان براكين الدنيا جميعها قد انفجرت فى هذه الليلة ؟ يعود عمر الى الحديث، وعمر هذا كان قد انهى الخدمة العسكرية وهو يبلغ من العمر الثامنة والعشرين وكله حركة ونشاط وامل، كان قد اجّل الزواج الى ان ينهى الخدمة العسكرية، اكمل دراسته الجامعية فى الاقتصاد وكان دائما يردد امام اصدقائه بانه بعد اتمام الزواج سوف يعمل على اكمال دراسته العليا ذلك ان البلاد فى حاجة الى امثاله اذ انه قد تأكد فى كل مكان من عالم اليوم ان علم الاقتصاد يتحكم فى مصائر الامم والشعوب وهو غير راض على التطبيق الاشتراكى فى بلاده ويقول انها بداية وربما امكن ان تراجع وتدرس ويبدأ الانطلاق بعقول متفتحة وآمال عراض للوصول الى المستقبل المنشود، لم تكن امامه مشكلة فى اتمام الزواج ففى بلاده اغلب مشاكل السكن والعمل وما الى ذلك محلوله وزوجته تنتظر، اما الزوجة وتدعى فاطمة وهذا الاسم برغم تقليعة الاسماء الجديدة الوافدة على البلاد والتى افرزتها الحياة السريعة وافلام الدول العربية الهابطة مازال يحتل المرتبة الاولى فى البيت الليبى تيمنا بفاطمة الزهراء، فاطمة هذه كانت فتاة فى الثامنة والعشرين من العمر وتنهى هذه السنة دراستها الجامعية فى كلية الآداب، وهى ذات وجه دائرى ابيض وشعر ذهبى طويل تجدله دائما فى ظفيرتين تتدليان على كتفاها كأنهما تتسابقان على ملامسة الارض، وللشعر الذهبى والعينين الخضراوين جاذبية خاصة فى بلد اشتهرت فيه المرأة بالشعر الاسود والعينين السوداوين او العسليتين، تقضى اغلب وقتها مع والدتها فى انتقاء اثاث ولوازم البيت، كانت تحب البساطة فى كل شئ فهى لا تريد لبيتها ذلك النوع المتعارف عليه من اثاث كثير كالمقاعد المذهبة والستائر المزركشة، لابد ان يكون بيت كل ما فيه بسيط ويدل على الحياة العصرية بلا تعقيدات، وكان البيت عبارة عن فيلا

صغيره فى الضاحية الشمالية الشرقية من مدينة بنغازى تطل على حديقة ملأى بالشجيرات المستديرة التى لا تنهض عن وجه الارض كثيرا وورود مختلفة الالوان والانواع ذات سياج حديدى طلى باللون الاخضر وساحة لعب اطفال بها عدد من المراجيح والمزالق والدوارات، وكانت تقف كل يوم تمتع النظر بالاطفال الذين يلعبون ويمرحون فى سعادة غامرة، فهؤلاء لا يعلمون بالمشاكل ولا يدرون عن السياسة شيئا ولا عن هموم الحياة يتنادون باصوات عالية ويتقافزون بين لعبة واخرى، كانت تقول انها تريد انجاب طفلة واحدة فقط لأنها ايضا تريد اكمال دراستها العليا ولابد ان تلك الطفلة التى ستكون جميلة كأمها ستلعب فى ساحة الحديقة وتداعب باناملها الطرّية الصغيرة شجيرات الحديقة وازهارها. . وهكذا فان عمر عندما عاد يتحدث عن ليلة القيامة والاعصار الذى اصاب المدينة وهى نائمة فى ليلة هادئة كان يردد انها ليلة عرسه الاولى، وقد تلاشت ودفنت امانيه وفاطمة معها، لقد تمزق جسمها اربا واحترق ذلك الشعر الذهبى الطويل، وتشوه الوجه الدائرى الابيض الجميل، تغالبه العبارات فتغوس الكلمات فى حلقه ويغمض عينيه الذابلتين، يتنهد، لماذا وما الذى حدث وماذا جنينا ومن المجرم والارهابى ؟ آه، انا لله وانا اليه راجعون، يغيب عن الوعى. . ولقد تحولت الفيلا الى اكوام من الحجارة المهشمة وتلك الحديقة الى حفر عميقة ولعب الاطفال الى قطع حديد مبعثرة فى كل اتجاه. . موكب مهيب، اناس من مختلف الاعمار فى موكب جنائزى يتجه الى المقبرة لدفن الشهداء، اصوات متناغمه، لا اله الا الله محمدا رسول الله، هتافات بسقوط ريغان والامبريالية الامريكية، زغاريد تنطلق من حناجر نسوة يطّلن من الشرفات، صوت يرتفع، انه يوم الشهداء الموت لأمريكا، شباب بحماس شديد يهتفون ويطلقون الرصاص من رشاشاتهم فى اتجاه السماء، رخات متتالية من هنا وهناك، يزداد الحماس ترتفع الاصوات المتناغمة، لا آله الا الله محمدا رسول الله، احاديث وهمس، الاول، كيف

حدث العدوان واين دفاعنا الجوى أما كنا نتوقع العدوان الامريكى وقطع الاسطول السادس كانت تمخر البحر امام شواطئنا ؟

الثانى، انه عصر الهمجية والرئيس ريغان مغامر على طريقة ممثلى السينما فى هوليوود. . الاول، ولكن هذا كان متوقّعا خصوصا بعد ضرب خليج سرت والتهديدات المتتالية والمعلنة وقد اذاعتها ونشرتها الصحف الامريكية نفسها. . الثانى، لعلهم فاجاؤا دفاعاتنا الجوية ؟الاول، واين الطائرات ؟ اين طيارينا ؟ الثالث، بهزء، الصوت العال لا ينتج عنه الا الصدى الذى تردده الخوالى من الارض والوديان العميقة. . الثانى، يا اخى اتق الله نحن دولة صغيرة ويكفينا شرفا اننا قلنا اننا سندافع عن انفسنا ولن نستسلم. . الثالث، وبهزء شديد، وما فائدة هذا الكلام ؟ كله تهويل كما حدث من قبل فى غير هذه البلاد، أما كان اجدى ان نعترف باننا لا نستطيع مواجهة امريكا، وتتحدثون الآن عن العدوان والغطرسة والكاوبوى بينما انتم تثيرون الغبار فى كل مكان وتشيعون بانكم وراء كل شئ ! الاول، بألم وتشمّت، اننى لم اسمع فى اى بلد ان الذى يريد القيام بعمل ما يعلن عنه، وحتى الاعمال التى يقوم بها الآخرون تنسب الينا لأنهم يقومون بالعمل الذى يسمى ارهابا وينكرونه بينما نتحدث عنه نحن فى صحفنا واذاعاتنا. .

الثالث، وهو ينظر الى الاول ضاغطا على شفتيه حتى برزتا الى الامام دليلا على الاستهزاء، يا سيدى من هو الذى يقرأ صحفنا او يسمع اذاعاتنا ؟ الاول، مهما كان فان هذا الاعلام لا يخدم المصلحة الوطنية ولا القومية ولا. . .رابع، مقاطعا بحدّة، تتحدثون الآن عن الوطنية، باستغراب، هل هذا وقت الشماتة ثم ما هو المطلوب هل تريدون ان نذهب الى البيت الابيض نستجدى الرحمة والرأفة نادمين تائبين، انا اعتقد ان الظرف والوقت لا يسمحان بالحديث والنقد الآن، وهذا الذى تقولونه يعود بى الى حادث الطائرة الليبية المدنية التى اسقطتها اسرائيل سنة 1972م وهى فى رحلة عادية الى القاهرة وكيف انتهز الفرصة بعض المخربين ليتظاهروا

ويعتدوا على الابرياء ويكسّروا كل شئ يجدونه فى طريقهم بشوارع المدينة محتجين على مصر لمجرد ان الطائرة كانت قد ظلت طريقها من فوق مطار ذلك البلد العربى شامتين فى ليبيا التى فقدت طائرتها ومواطنيها دون ان ينال اسرائيل شئ من سخطهم، وذلك بالطبع أمر عجيب غريب ! الاول، ها نحن بدأنا فى الاتهامات، يقطّب حاجبيه، يندفع الى الامام. . الثالث، هذه الاذاعة الليبية تقول اسقطنا عدد كذا من الطائرات والحقيقة عكس ذلك وكأن احمد سعيد قد رجع مرة ثانية واحداث سنة 67م قد تكررت، والغريب ان الاذاعة تتحدث بارقام بينما وكالة الانباء تتحدث بشئ آخر مختلف الخ. .

الاول: لا آله الا الله، إن الأمور لم تتضح بعد ولكن ما فائدة هذا الكلام الآن وحتى على افتراض ان ما اذيع ليس صحيحا ألا يكفى اننا فعلا حاولنا ان نتصدى لهؤلاء الغزاة واننا مصممون على الدفاع عن بلادنا ثم ان العالم كله معنا. . الرابع، باستخفاف، العالم ! وماذا يعنى هذا العالم ؟ وربما تقول ان السوفييت ايضا من ضمن هذا العالم الذى تقول انه معنا !! الاول، ها قد مسست بيت القصيد وفهم الغرض فى النهاية، ودون ان ينتظر الرد سار بخطى سريعة وصار يردد مع الناس، لا آله الا الله محمدا رسول الله، الى ان وصل الموكب المقبرة وتم دفن الشهداء فى مشهد مؤثر جليل، لم يكن من الممكن التمييز بين الرجل والمرأة او الطفل، جثث مقطّعة واخرى محترقة مشوّهة لملمت فى صناديق ودفنت. . من واشنطون كان الرئيس ريغان يعلن ان الطائرات الامريكية قد ضربت معسكرات تدريب الارهابيين فى ليبيا ومركز قيادة العقيد القذافى فى طرابلس وانها ستعاود الضرب اذا اقتضى الامر لأن الولايات المتحدة ضد الارهاب. . المعارضة الليبية فى الخارج تعلن بان قواتها تقاتل فى شوارع طرابلس ضد مؤيدى القذافى وانها سوف تنتصر وتنهى الحكم الذى سيطر على البلاد وهيمن على العباد كل هذه السنوات وبدد اموال الشعب فى مغامراته. .

اذاعة اوربية نقلا عن مراسلها فى طرابلس تقول ان الجيش الليبى قد انتفض وثار ضد القذافى وان اصوات المدافع والاطلاقات تسمع فى كل مكان فى طرابلس وان مصير القذافى غير معروف . . وكأى حدث فى مكان من العالم تتضارب الانباء وتختلف الروايات وتصّور خيالات الناس اشياء قد لا يكون لها وجود، ويظهر الشامتون والحاقدون والطامعون والمتربصون ويحدث التهويل والتهوين ولكن الحقيقة ما تلبث ان تبدد ما عداها، وهكذا اعلن فى طرابلس ان العقيد القذافى معاف وبخير وانه سوف يظهر على شاشة التلفزيون، ووقع الخبر كالصاعقة على رؤوس الكثيرين . . يظهر العقيد القذافى على شاشة التلفزيون معافيا تدل ملامح وجهه على التصميم فيحدث لهؤلاء واولئك ما يحدث لشهاب من نار دس فى ماء بارد فجأة، وتدغدغ مشاعر الوطنيين سعادة الانتصار على الباطل وان كان الثمن دما، وتعود الذاكرة بهم الى وقت مضى كانت فيه الكرامة مصانة والامة واثقة والاحساسات متأججة، المشهد يتكرر، لقد تذكر الناس منبر الازهر الشريف وجمال عبدالناصر بقامته العملاقة وانفه الشامخ ومنكبيه العريضين وهو يعلن اننا حنحارب ولن نستسلم وعلى المتخاذلين ان يدسوا رؤوسهم فى التراب، وتنتصر الارادة العربية والامة العربية والعزيمة العربية ويتلألأ فى الافق البعيد امل الوحدة العربية والتقدم، الناس، اى ناس عادة ما تخامرهم الشكوك وتكون الفرصة سانحة لأولئك الذين يصطادون فى الماء العكر، بالامس كانوا يقولون ان لا فائدة وانه من العبث ان تحاول الدول الصغيرة الخروج عن حيزها والا كانت كالقربة كلما نفخ فيها تضخمت ولكنها سرعان ما تنفجر فلا تعد صالحة لحمل الماء ولا الهواء، أما كان خيرا لنا ان نعترف باننا متخلفون واننا يجب ان لا نتحدى الكبار وان لا احد سوف يساعدنا اذا ما رأى السيد ريغان ان يدق على رؤوسنا ! ولقد انقسم الناس، متحمس عاجز، وخائف متشكك، وحاقد شامت، والكثرة الكثرة قلوبها مع على وبطونها مع معاوية وهكذا هى طبيعة الاشياء وسنن الحياة،

كل ينظر الى الامور من زاوية مختلفة عن الآخر، المتحمس العاجز هو ذلك الذى يرى فى النظام ايجابيات وسلبيات، ايجابيات كثيرة لصالح الوطن والمواطن والامة والوطن، والسلبيات التى يرى انها امر بديهى ويمكن ان تتحول الى ايجابيات لو امكن ان تناقش وتبحث بعقل متفتح وودود ولكن كيف يمكن ذلك وقد علت الاصوات وكثر التطبيل ؟ وآخر خائف متشكك متربص لأنه اغمض عينيه كل السنوات الماضية فلم تر النور ولا شهد تحرك عقارب الساعة الى الامام وقد يشارك فى الزفة اذا تغيّر الوضع وطالما ان امريكا هى التى تقوم بالهجمة فلابد انها سوف تلغى من القاموس السياسى كلمة اشتراكية وتطمس من عقول الناس مجرد التفكير فى الوحدة، اما ذلك الحاقد الشامت فانه يرقص على دوى القنابل والصواريخ ويهتف لأزيز الطائرات المغيرة على طرابلس وبنغازى ولا يستكثر تلك القنابل التى تزن الواحدة منها طنا من المتفجرات لأنها العقاب المناسب للشعب الذى صفق للنظام القائم ووافق على ما يجرى وسيكون سعيدا بان يعود منتصرا فوق كل الاشلاء والجثث، وتلك الكثرة فان قلوبها مع على لأنه على حق وبطونها مع معاوية لأنها ترى اسواقها خالية وجيوبها خاوية وثروات بلادها ضائعة . . هكذا كان الحال عندما ظهر العقيد القذافى على شاشة التلفزيون ليتحدث الى كل هؤلاء الناس، من كان داخل البلاد فقد ألتصق بالشاشة الصغيرة ليرى ويسمع ومن كان بعيدا فقد حرص على ان يسمع كل الاذاعات والوكالات التى تناقلت الاخبار، العقيد يطلب من مواطنيه ان يخرجوا الى الشوارع والميادين ليغنوا ويرقصوا، وهنا يتساءل صاحبنا ووحشة الغربة تملأ جوانحه وملل الانتظار يمزق قلبه، وقد مرت الليلة الكئيبة والجرح النازف، ماذا يعمل ؟ يفكر فى ان يزور صديقه فلربما امكنه ان يتبين ان الرجل كان يائسا وقد قال ما كان يدور فى ذهنه وقتئذ، وايما كان الامر فان ساعات اليأس شديدة الوطأة . . يتجه الى الباب بخطوات متثاقلة وكأنه مشدودا الى الخلف ودون ان يلتفت، تسأله زوجته، هلا تناولت القهوة قبل الخروج ثم

انك لم تغير ملابسك كالعادة عند زيارة احد ام تراك على غير هدى ولا قصد ؟لا يرد ولكنها تلاحقه بكلماتها، اذا كنت تود زيارة اولئك الصحاب فقد تعود كالمرة السابقة متأثرا مهموما تصب غضبك على من فى البيت ؟ يرد بصوت خفيض، ابحث عمن اتحدث اليه فان سلامة الوطن مسؤولية الجميع، ويتوقف عن الكلام وهو يخرج لأنه تذكر ان زوجته هذه كانت قد سمعت ان اللبان لا يتوفر فى السوق الليبى وان الناس تقف فى طوابير طويلة لتحصل على كيلو من اللحم الذى يسمونه فى ليبيا (المكفّن) وهو لحم يستورد من الخارج ملفوفا فى قماش ابيض، وقد جعلت من ذلك قضية لتقارن بين النظام الحالى وما قبله، فالحكم الذى لا يوفر اللبان ليس وطنيا حتى لو كان يريد ان يبنى المصانع وينشئ المزارع ويرفع الشعارات البراقه كشعار الوحده ! وكانت قد طفقت تتحدث عن ليبيا وكيف كانت جنة يتوفر فيها كل شئ وكان العرب يأتون اليها لشراء ما يحتاجون اليه فصار الليبى لا يجد شيئا بل انه يشترى حتى مسحوق الصابون من الخارج اذا قدّر له ان يخرج فى رحلة ما، وكان قد حاول افهامها الاسباب والظروف التى تمر بها البلاد وكيف انها تحارب وتفرض عليها المقاطعة الخ لكنها لم تفهم او لم تشأ ان تفهم ما يقول..؟

خرج متجها الى صديقه محمود ذلك المتفكه دائما الذى لا يهمه الا السيجار والرقص على الموسيقى اليونانية والذى يحلو له القول ان الموسيقى اليونانية قريبة من الموسيقى العربية وان الرقص اليونانى الجماعى يشبه رقص البادية عندنا عندما يقفون متشابكى الايدى ليبدأوا الرقص متحركين فى حلقات دائرية تدل على الرشاقة، وفى احيان اخرى يتحدث باستفاضة عن كارل ماركس ونضال الطبقة العاملة (البرولتيريا) ناسيا بالطبع انه لا ينام قبل ان يستهلك عددا من السيجار الكوبى الثمين الشئ الذى لا يتناسب مع وضع من يعتقد انه (بروليتيرى) وفى الطريق يشترى صاحبنا الجريدة المحلية التى تصدر باللغة الانجليزية برغم علمه انها معادية لبلاده، وعندما تصفحها

لاحظ انها تجاهلت الاشارة الى ظهور القذافى وحديثه فى التلفزيون ولعل السبب فى ذلك انها اول صحيفة كانت قد نشرت انه اما ان يكون قد مات او هرب خارج البلاد. .كان الطقس منعشا والشمس تميل الى الغروب مؤذنة بقرب نهاية احد ايام العمر التى بدأت تنصرم بسرعة، دار فى ذهنه هذا الخاطر ثم تذكر انه لا فائدة من ان يعيش الانسان كثيرا فى هذا الزمن العربى الردى والمتردى وهذا الاغتراب الاختيارى المؤلم، ما قيمة الحياة وما فائدة طول العمر وهذه قنابل الاعداء تحصد كل يوم عشرات الرجال والاطفال والنساء ؟

يتوقف قليلا اذ لفت نظره خبرا فى الجريدة كتب بخط عريض، حركة امل تهاجم الفلسطينيين فى المخيمات بلبنان، وسيارة مفخخة تنفجر فى بيروت الغربية فتقتل وتجرح العشرات، استاذ جامعى يعثر عليه مقتولا بعد ان اختطف من الكلية التى يدرّس بها، مظاهرات طلابية يقمعها الامن المركزى فى مصر، المجاعة والتصّحر تهددان الملايين من الاطفال بالموت فى السودان، محاولة انقلابية فى اليمن الجنوبى والقتال مستمر بالمدافع والطائرات والدبابات وجميع انواع الاسلحة بين المؤيدين والمعارضين، القتال بين البوليزاريو والمغرب على اشده فى الصحراء الغربية، دولة قطر ودولة البحرين تتقاتلان من اجل حجر على الحدود البحرية بينهما، وايران تعلن انها قتلت واسرت المئات من الجنود العراقيين واحتلت مدينة الفاو، المملكة العربية السعودية تطلب اسلحة امريكية تقدر قيمتها ببلايين الدولارات والكونغرس الامريكى يرفض الموافقة على بيع الاسلحة، العراق يعلن عن قتل وجرح المئات من الايرانيين، الثرى العربى الذى يقيم حفلا بمناسبة عيد ميلاده يدعو اليه آلاف الممثلين ونجوم السينما العالمية، اسرائيل توقّع اتفاقا مع الولايات المتحدة الامريكية لتصبح ثالث دولة تدخل برنامج حرب النجوم وتنتج أحدث الدبابات والصواريخ !! طال به الوقوف وهو يقفز بعينيه بين هذه العناوين والاخبار، انها جريدة

مغرضة، يرمى بها على الارض ثم يواصل السير فى اتجاه بيت صديقه الذى قد يشاطره هذه المرة مشاعر الألم على ما ألمّ ببلادهما إثر العدوان الامريكى، وفى داخله يتساءل، ما هذا العبث واللامعقول، لماذا تشترى السعودية الاسلحة ببلايين الدولارات وهى لم ولن تحارب على الاطلاق ؟ ولماذا يتقاتل اللبنانيون، بل لماذا يتحارب العرب بينما اسرائيل تبنى وتتقدم وهى الآن تدخل برنامج حرب النجوم كأى دولة متقدمة فى العالم ؟ ولا يتنبه الا وهو امام بيت صديقه الذى يقصد فينفض كل هذه الافكار، يقف امام البيت ليضغط على زر ابيض صغير فيسمع صوت الجرس فى الداخل، ينتظر بعض الوقت ويلاحظ ان هناك من ينظر من الداخل عبر ثقب صغير فى الباب، يضغط على الزر مرة ثانية، واخيرا يفتح الباب واذا بالصديق ولفافة التبغ بين شفتيه، تخين متورّد الوجه، يقابله بضحكة هازئة متسائلا، ها لعلك استرحت ايها الصديق الثائر ؟ يتنحى جانبا وهو يفتح الباب قائلا تفضل لعل مزاجك هذا اليوم يكون رائقا، نظر اليه صاحبنا نظرة ارتياب وهو يأخذ طريقه الى الصالون، كان جهاز الفيديو فى الصالون دائرا ويظهر العرض على شاشة التلفزيون فيلم امريكى حربى عن الهند الصينية، وحجرة الجلوس بها عدد من المقاعد الوثيرة ومنضدة مستطيلة فى الوسط عليها كؤوس وحافظة ثلج مع زجاجة خمر ومأكولات خفيفة. . وقف صاحبنا وقد خمن ان تأخر صديقه عن فتح الباب وهذه الكؤوس على المنضدة تدل على شئ ما، نظر يمنه ويسره، وحاول ان يعتذر ولكن محمود بادره بالقول ليس هناك من سر انها صديقة أتت فى زيارة، وفى هذه الاثناء اتت سيدة فى مقتبل العمر ترتدى ثوبا اسود تتخلله خيوط حمراء تبدأ من فوق النهدين وتنتهى عند الركبتين، متوسطة الجمال قصّت شعرها الاشقر بحيث كان قصيرا لا يغطى الرقبة من الخلف، بيضاء ذات عنق طويل وقوام خيزرانى متناسق، قدمها محمود على انها (ريتا) وقدم صديقه اليها قائلا (صديقنا الليبى) قدمه بكلمات

ضاحكة تتخللها تعبيرات، ثورى ومتحمس، شديد العداء للولايات المتحدة الامريكية، نظر هذا الى وجه صديقه وكأنه اراد ان يلومه على هذا الموقف، ثم تحول بعينيه الى وجه السيدة ريتا قائلا، بالعكس نحن لسنا ضد الشعب الامريكى ولا ضد اى شعب آخر، ثم اننى ارجوك ألا تأخذى كلمات صاحبك على محمل الجد لأنه فى الغالب لا يعنى ما يقول، وكانوا جميعا وقوفا فتنبه الرجل ليدعوهما الى الجلوس، واضاف، ياخى لا تظننى شامتا لكننى كنت ادرك نتيجة الاحداث، جلس صاحبنا وهو ينظر الى صديقه نظرة باردة كأنما اراد ان يقول انك والله لمنافق، ولكن هذا بدأ باعداد كأس لكن ضيفه اعتذر قائلا انه لا يحس برغبة فى تناول اى شئ، تساءلت الامريكية، لماذا الرئيس القذافى يهدد الامريكيين ويقوم بالارهاب ؟ لم يفاجأ صاحبنا بالسؤال ولكنه نظر اليها نظرة قاسية معيدا الكرة، من الذى يهدد ومن الذى اعتدى على خليج سرت بالصواريخ ومن الذى ارسل حاملات الطائرات الذرية والبوارج الحربية الى البحر الابيض ؟ ومن الذى قصف المدن الليبية بعد منتصف الليل ليقتل النساء والاطفال بالقنابل التى تزن الواحدة منها الفى رطل، توقف قليلا ثم اضاف، ايكون القذافى هو الذى ارسل قواته الى الشواطئ الامريكية ويكون قد قتل الاطفال والنساء فى نيويورك وواشنطون وغيرهما ؟ توقف عن الحديث وهو ينظر الى صديقه بامتعاض شديد. . كانت السيدة ريتا قد افرغت كأس الخمر فى جوفها ورفعت حاجبيها استغرابا ثم قالت، أليس القذافى هو الذى يعلن فى اذاعاته انه سيضرب المصالح الامريكية وهو الذى يأوى الارهابيين الفلسطينيين وابو. . . . . نسيت بقية الاسم فصحح صديقها، تقصدين ابونضال، هزت رأسها ثم قالت، لقد قرأت ذلك فى مجلة نيوزويك. . فقال صاحبنا، آه من الاعلام الليبى، سألته، ماذا تقول ؟ اجاب، لا، لاشئ فالامر يحتاج الى الكثير من النقاش، ملأت كأسها وهى تقول نحن لا نريد الحرب ولكن

الشيوعيين هم الذين يعملون على هدم العالم الحر، نهض مستأذنا، وقال، كنت اود ان اتحدث الى صديقى هذا، فاعتذرت السيدة الامريكية قائلة ارجو الا أكون قد اغضبتك ؟ فقال لا ولكنك نكأتى جراحى الدامية وارجو ان اتمكن من ان ابعث اليك صور الاطفال والنساء الذين حرقتهم وقطعت اجسادهم قنابل ال (ف 111) تأففت وقالت، ارجو ألا تفعل فانا لست مع ريغان لكننى لا احب القذافى. . لم يرد بشىء، اتجه الى الباب ومنه الى الخارج وكان يود لو سألها ما اذا كانت من اصل يهودى لأنه يعلم ان اسماء (ريتا وايفا وليزا وسوزان) عادة اسماء يهودية امريكية او يهودية انجليزية، ولكن ما الفرق حتى لو كانت فاطمة فان دعاية الغرب قادرة على تزييف الحقائق. .خطر له وقد لفحت وجهه نسمة المساء الرطب ألا يعود الى البيت وفكر فى مكان يقضى فيه بعض الوقت، ولكن كيف يمكن ان يقضى الوقت ؟ فلا هو محب للهو اصلا وليس له غير اثنين من بلاده اعتبرا لاسباب مختلفة مغتربين ولكنهما ليسا معاديين، ولقد حاول ان يبكى هذا الظرف التعيس وكان قد قرأ ذات مرة بحثا لأحد العلماء فى امراض القلب يقول فيه اننا يجب ان نطلق العنان لدموعنا عندما نشعر بالألم ذلك ان الدموع مفيدة من أجل تخفيف الألم الجسدى لأن غدد الدموع تفرز مواد خاصة الى الدم وان انهمار الدموع انما هو التجلى الخارجى لعمل الغدد، ولكن اين هى الدموع فقد تحجرت فى المآقى والقلب يعتصر ألما من هول الكارثة وهنا قرر ان يقصد بيت صديقه القديم الحاج يوسف الذى لا يمل حديث السياسة ولربما حظى بحديث قصير مع فوزية ذلك الحديث او اللقاء الذى يدخل على القلب السرور وهى بالتاكيد تدرك مدى عمق الازمة التى يعانيها هذه الايام، وقد استسلم لهذه الفكرة فاتجه مباشرة الى البيت دون ان يخطر بباله انه لم يكن دائم التردد على بيت هذا الصديق وان مجيئه قد يثير بعض التساؤلات، ولكن أليس الوطن فى محنة وان مسؤولية الجميع فى ان

يشاركوا على الاقل وجدانيا فيما حدث لبلادهم، المهم انه قرر الذهاب الى بيت الحاج يوسف او قل بيت فوزية، لا فرق فكلاهما قريب من القلب. . وقف امام البيت مترددا ثم مد يده ليضغط على زر الجرس وما هى الا لحظات حتى فتح الباب واذا به وجها لوجه امام فوزية وقد نظر مباشرة فى عينيها السوداوين وتلكم الحاجبين المقوّسين كهلالين يلتقيان ليرسما هالة بديعة على الوجه، احس بشعاع يندفع منهما الى قلبه فازدرد ريقه وهو ينظر اليها حائرا ولكنها بادرته بابتسامة وقد غمره عطرها المفضل لديه والذى تحرس دائما على عدم تغييره، دعته الى الدخول فخطى خطوة ثم توقف معتذرا ليسأل ما اذا كان صديقه الحاج يوسف موجودا فاومأت وهى تشيّعه بنظرة هادئة مرددة، تفضل انه بالصالون، تذكر انها كانت تطلب اليه استعمال نوع مفضل لديها من عطر الوجه الذى يستعمل بعد الحلاقة وكان يسمى (دراكار) انها ذكريات ولكنها لم تعد ذات معنى فقد تزوج وانجب اطفالا من زواجه الاول وان لم يكن سعيدا الا انه يدرك مسؤولية العائلة وهو حريص على ان يكون مستقيما وهنأ بزواجه الثانى وإن قد شغلته السياسة بما فيها من هموم ومشاكل. .استقبله الصديق مرحبا وكعادته كان يرتدى ذلك الجلباب الابيض الطويل، وقد لاحظ صاحبنا ان الصلاّية ماتزال مطروحة على الارض مما يعنى ان صديقه فرغ لتوه من أداء صلاة المغرب، سلّم وهو يعتذر اذ ربما كان الوقت غير مناسب والزيارة فى غير وقتها ؟ اجابه الصديق، لا يا رجل، انت فى بيتك، ثم اننى عادة ما ابقى فى البيت واحتاج الى من يزورنى وفى زيارة الاصدقاء الخير والبركة، كانت فوزية قد تبعته الى حيث كان يجلس والدها، وعندما تنبه الى وجودها اعاد النظر هذه المرة فاذا هى ترتدى ثوبا منزليا جميلا ذو ياقة دائرية بيضاء واكمام قصيرة وقد جدلت شعرها الطويل فى ظفيرتين يظهرانها اقل من عمرها الحقيقى وحول الرقبة ربطة قماش حريرى ازرق تتخللها خطوط خضراء تتهادى على صدرها البارز،

قالت، هل تفضّل القهوة الآن وقد افتر ثغرها عن اسنان بيضاء كالعاج، فقال الوالد، لعله يفضل الشاى الاخضر ؟ اجاب، لابأس من الشاى فانا اعتقد اننى فى حاجة الى مهدئ، فضحك الحاج وهو يميل برأسه الى الخلف قائلا، لا، ربما كنت فى حاجة الى شئ منّبه وعلى اى حال فالشاى الاخضر يساعد على الهضم، لم يقل صاحبنا انه لم يجد فى نفسه شهية للاكل منذ فترة لكنه فضّل ان يتناول الشاى وعندما غادرت فوزيه الصالون سأله الحاج، هل لديك معلومات عن مقدار الخسائر فى كل من طرابلس وبنغازى ؟ اجاب، ليس بالتحديد ولكن وكالات الانباء تقول ان الخسائر المدنية اكثر وان هناك قتلى مدنيون من بينهم اطفال ونساء وان بعض القواعد والمعسكرات قد ضربت ايضا ولكن القذافى تحدث عبر التلفزيون ليطمئن الناس وقيل ان ابنته بالتبنى قد قتلت ايضا عندما قصف بيته. . قال الحاج، على اى حال ذلك متوقع وهو ثمن لابد ان يدفع ولكن ربما كان هذا الذى حدث مقنعا لقيادتنا بان تعيد النظر فى كثير من الامور ومنها ترتيب البيت الداخلى فلقد حدثت اشياء كثيرة ما كان يجب ان تحدث، وانتهز الكثيرون فرصة التصعيد الشعبى فقفزوا انتهازيا وهم لا يؤمنون بشئ وتولوا مسؤوليات كبيرة وكثيرة مما افسد وأساء، بل انهم كانوا يدمرون حتى تلك الانجازات التى تحققت فى البداية، وطفق يتحدث عن اولئك الذين لا علم ولا خبرة لهم ولا ايمان بشئ فى قلوبهم، وكيف انهم انتهزوا الفرصة عندما طالب العقيد بتطبيق السلطة الشعبية، وافاض فى الحديث عن التجارب السابقة وكيف كان الليبيون يناضلون ضد الايطاليين ومدى حبهم لبلادهم، بل ان اولئك الذين هجروا البلاد مرغمين هربا من بطش الايطاليين لم يفقدوا انتماءهم للوطن وظلوا يكافحون حتى عادوا بعيد الاستقلال، كان كثيرون فى المهجر، فى مصر وفى تركيا وتونس والنيجر وتشاد وغير هذه البلاد، اما الآن فان الذى يخرج من البلاد فى الغالب لا يعود اليها، وها انت ترى اننى هنا منذ

فترة والله يعلم اننى اتمنى ان اموت وادفن فى بلادى واننى مع الثورة التى قامت من اجل الحق والعدل لكننى ارى انه من الخطأ ان توضع مقاليد الامور فى ايدى شباب بلا خبرة ولا علم، مع العلم اننى مع فكرة اعداد الشباب وتأهيلهم تأهيلا جيدا لأنهم عدة المستقبل، دخلت فوزيه بالشاى فتوقف قليلا، وعندما وضعت اكواب الشاى على المنضدة قالت وهى تبتسم، لابد ان الحديث عن السياسة والسياسيين، فاجاب الحاج، انها خبزنا اليومى ومع الاسف فهو خبز غير مفيد او هو فى الحقيقة مروود خالد وهذا اسمه ان يقول انها شغلنا الذى ابعدنى عن فوزيه وليتنى ما فعلت ذلك ولكنه احجم عن الكلام منتظرا ان يكمل الحاج حديثه الذى بدأه، ولقد كان من الممكن ان تتقدم البلاد بمقدار سنة كاملة كل يوم لأن الثورة فى بدايتها وضعت ثروة البلاد فى خدمتها ولكن الكفاءات كلها تركت مواقعها لأناس قفزوا كما قلت من اجل المصالح الخاصة ولك ان تتصور كيف تطبق الاشتراكية فى بلادنا فقد قفلوا كل المتاجر وحتى الدكاكين الصغيرة وانشاؤوا اسواقا كبيرة وجميلة ولكنها خالية من البضائع وقد جعلوا من صاحب الدكان تاجرا موظفا فى هذه الاسواق، وهذا بالضرورة ضد الاشتراكية بل لعله ضد الثورة اساسا لأنها اممت دكانه، واخذوا من صاحب العمارة عمارته دون ان يستفيدوا منها فتحولت المبانى الى خرابات، يقاطعه خالد لأول مرة، ألا ترى أن مقولة البيت لساكنه ربما استهدفت فى الواقع احقاق الحق اذ لا يعقل او يقبل منطقيا ان يمتلك شخص واحد عمارة كاملة والثانى لا يملك حتى مجرد سكن عادى !يرد الحاج بحدّة، هل طبقت هذه المقولة كما يجب ؟ فقد اخذوا العمارات دون تعويض وأسكنوا فيها أناس يدفعون ايجارا شهريا لمصلحة الاملاك وهم لا يهتمون بها فتجدها خلال مدة قليلة قد تحولت الى خرابه تملأها القاذورات وتخر المياه من اركانها، واذا لم تصدق فسوف أذكر لك الاسماء وما عليك الا ان تزورها. . وهنا رنّ جرس الباب فتفتحت فوزيه

واذا به زوجها فتحى، دخل وكان وجهه عابسا وحذاءه مغبّر وهندامه بصورة عامة مهمل وكان فيما مضى يعمل فى قطاع المقاولات والنقل وانشطة إخرى، سلّم دون ان يمد يده لأحد وهذا نادرا ما يحدث بين الليبيين اذ اعتادوا ان يتصافحوا بالايدى وفى كثير من الاحيان بالاحضان والقبلات، ولكن يظهر ان التغيير السياسى يحدث تغييرا اجتماعيا وسلوكيا قد يكون شاذا فى بعض الاحيان، تأوه فتحى هذا ولعله لم يلقى نظرة على زوجته التى فتحت الباب ولم يوليها اى اهتمام وهى قرة عين كل ناظر لكنه لا يفكر الا فى عماراته واعماله التى استولت عليها الحكومة كما يقول.. فتحى، الامريكيون يهددون بضرب البلاد مرة ثانية وهذا يدل على ان ضربتهم الاولى لم تأتى بفائدة ؟خالد باستغراب، وما هو نوع الفائدة !فتحى، لا هم تركونا ولا هم خلّصونا، بنرفزة، حشود بحرية وطائرات ولا شئ ! خالد، غريبه ماذا تريد ان يفعلوا، أتراك شامتا فى بلادك وأهلك ؟ فتحى باستهزاء، بلادى ! ماذا عن بلادى ؟ كانت خير بلاد وكانت آمنة وهادئة ومستقرة، وقبل ان يرد خالد تدخل الحاج قائلا، لا يا فتحى اننا نختلف مع بعض الممارسات التى حدثت من جانب اللجان الشعبية والثورية والمؤتمرات لأن اغلب اعضائها من الشباب الذين تنقصهم الخبرة ولا يعرفون مطالب الناس عن قرب، اما الثورة فذلك شئ آخر تماما، لقد قامت الثورة باعمال كثيرة واخرجت الانجليز والامريكان وسيطرت على الثروة الوطنية. .فتحى باستعلاء، سيطرت على الثروة الوطنية !! الواقع انها بددت الثروة الوطنية، ما فائدة ان يجوع ابنى ولا استطيع علاج والدتى بينما يصرفون بلايين الدولارات على اناس آخرين فى افريقيا وامريكا اللاتينية وغير هذه وتلك ؟ لقد كانت ليبيا فقيرة بل هى افقر بلد عربى ولقد عشت تلك الفترة القاسية وعاشها ابى وجدى ولما حباها الله ببعض الخير حرمت منه، وقد حرم منه ابنائى، يسكت قليلا، فتدخلت فوزيه لتقول، لقد كانت ليبيا فعلا فقيرة وعندما استخرج فيها

النفط كان يذهب الى الشركات الامريكية والانجليزية وغيرها وكنا لا نحصل الا على النزر القليل فهل تذكر يا فتحى كيف كانت مبانى المدارس والمستشفيات وكيف كان الامريكان فى طرابلس والانجليز فى طبرق ؟فتحى بغضب، اعرف ولكن ذلك حدث فى بداية استخراج النفط وكان يجب بعدئذ ان تكون ليبيا سويسرا البحر الابيض المتوسط..

خالد، ياخى سويسرا هذه لم يحدث فيها ما حدث بين ليلة واخرى، ولقد كان من الضرورى لكى تتقدم البلاد من الاهتمام بالمدارس والتعليم بصورة عامة والاسكان الخ..

فتحى، آوه، انت تتفلسف لأنك موظّف وتحصل على مرتب كبير ! يزّم شفتيه..

يقاطعه الحاج، الامر ليس كذلك يا فتحى وإلا لن تكون هناك فائدة من النقاش ولا تنسى ان المسألة ليست وظيفة بل هو الوطن والمصير، يسكت الحاج ولا يتكلم فتحى، بينما يتوجه خالد بفكره الى فوزية دون ان ينظر اليها، يقول فى داخله ان الذى لا يهتم بهذا الجمال لا يمكنه ان يحب اى شئ، ثم استدرك، فقال، استغفر الله اللهم بارك وأستر..

يعود فتحى الى الكلام، لقد قامت الثورة ووجدت التأييد من كل الناس فى ليبيا لأنهم فعلا كانوا يتوقّعون ويتوقون الى نظام وطنى يحافظ على البلاد وثروتها ويعمل على تقدمها، ولما جاء النظام الوطنى امم كل شئ وحتى الدكاكين الصغيرة ولم يعارض احد، لم يتركوا شيئا الا وقد وضعوا فيه اصابعهم ومع ذلك لم يتركونا على حالنا حتى عندما تركنا لهم البلاد، وها انت ترى ان هؤلاء الذين يعملون فى المكاتب الشعبية لا هم ولا عمل لهم الا مضايقة ومطاردة الليبيين وحتى الذين لا يعارضون الحكم وليس عليهم مآخذ الا انهم موجودون خارج البلاد، وهكذا فانهم بهذا التصرف يجعلون كل الناس ضد الثورة والبلاد..

حدجته فوزيه بتلكم العينين السوداوين وقد حركت حاجبيها الى اعلى بشدّة ولم تنطق بشئ مما يدل على استغرابها لهذا الكلام المتناقض وقد زمّت شفتيها دليلا على إستهزاء . .

قال الحاج يوسف، لقد تآمروا على جمال عبدالناصر وضربوا مصر، وكان ينظر الى الصورة المثبتة على الحائط، ومع ذلك لم يستطيعوا ان يجعلوه يركع بل نهض اقوى مما كان وقاد المسيرة وبنى الجيش من جديد واقام السد العالى ولو قدر الله، يقاطعه فتحى، آوه يا عمى، انك متأثر بالاعلام المصرى وتعتقد ان جمال عبدالناصر قد انتصر فعلا ومع ذلك فان جمال عبدالناصر لم يؤمم كل شئ وعمل من اجل الفقراء، وفى النهاية مات وها انت ترى ماذا حل بمصر ؟ خراب وأقطاع جديد وباشوات . .

خالد، يوجه كلامه مباشرة الى فتحى وهو ينظر فى عينى فوزيه، هل توافق على العدوان الامريكى وقتل الاطفال والنساء وهدم البيوت لمجرد انك فقدت عماراتك او انك تركت البلاد او ان الاستغلال قد منع ؟

فتحى بصوت عال، لا ولكن لذلك اسباب . .

خالد، ما هى الاسباب ؟ ألم تسمع بان المعارضة الليبية فى الخارج كانت تقول ان امريكا لن تضرب القذافى وان حشد الاساطيل هو مجرد مناورة لدعمه، فماذا تقول الآن ؟

فتحى، انا لا اهتم باولئك ولا اقرأ ما يكتبون لكننى اهتم ببلادى، بثروتى التى ضاعت وبمستقبل اولادى، بما يمكن ان يحل بليبيا . .

يتدخل مرة اخرى الحاج يوسف، وقبل ان ينهى كلامه ينهض فتحى غاضبا دون ان يحظى بنظرة من زوجته الجالسة قرب والدها، يعتذر الحاج عما بدر من فتحى ويقول هل تعتقد ان ريغان سوف يضرب مرة ثانية ؟

خالد، اننى لا استغرب ولا استبعد اى شئ من هذا الرئيس، لكننى اعتقد ان جهودا مخلصة لابد ان تبذل لكى لا يتكرر هذا الذى حدث فهى

دولة كبرى وقد بلغ برئيسها الجموح مبلغا لم يألفه العالم حتى انه وصف دولة كبرى اخرى بوصف (مبراطورية الشر)

الحاج يوسف، حقيقة اننى لا افهم لماذا نحن نصعّد الموقف ونتحدث فى اذاعاتنا وصحفنا بما يفهم منه اننا وراء كل الذى يحدث فى العالم وانا اعرف ان اغلب الدول تقوم باعمال لا تقرها القوانين ولكنها لا تعلن عنها ولا تعترف بها او ما تقوم به، ولقد قرأت ان روسيا السوفيتية كانت وراء مقتل تروتسكى فى المكسيك منذ اكثر من اربعين سنة وهى لا تعترف بذلك حتى الآن . .

خالد، هذا الى حد كبير على جانب من الصحة ولكن لا تنسى ان هناك اطرافا اخرى يهمها ان تلصق كل شئ بنا وان كنت اعترف معك ان اجهزة اعلامنا متخلفة وغوغائية جدا ولربما امكن احداث تغيير بعد هذا الذى حدث، وجمال عبدالناصر نفسه ندم عندما لم يحدث التغيير المطلوب بعد سنة 1956م وقد تكررت الكارثة سنة 1967م مما دفعه الى احداث التغيير والتركيز الدقيق والعمل الحقيقى وهكذا حدث نصر سنة 1973م

الحاج يوسف، الحقيقة ان هناك امورا كثيرة يجب ان يعاد فيها النظر وذلك خدمة للبلاد واهداف الثورة كالوظائف العامة والمسؤوليات والحكم والزراعة وهذه الاخيرة انا اعرف ان جهودا كبيرة وكثيرة بذلت وتبذل فيها ولكن سياسة التوزيع والتسويق غير صحيحة وربما يعود ذلك الى المشرفين على التسويق ونلاحظ الآن ان كثير من الدول تراجعت عن التطبيقات الاشتراكية المتشددة وخصوصا فى المجال الزراعى لأن الحافز الفردى مهم جدا وكما نسمع فان الخضراوات والفواكة الآن غير موجودة بينما كانت متوفرة والسبب فى رايى راجع الى انعدام الحوافز الفردية، ومن يقرأ الآن عن الوضع الزراعى فى الجزائر مثلا يلاحظ الفارق الكبير فقد تغلبت الجزائر على اغلب المشاكل التى خلقتها التسيير الذاتى فى مجال الزراعة، والارقام

التى نشرت اخيرا تدل على ان القطاع الخاص فى الزراعة أفيد وأنجح من القطاع العام . .

يستأذن خالد فى الانصراف شاكرا الحاج ومعتذرا، يقف الحاج يوسف وفوزيه، وفى الطريق الى الباب يقول الحاج، اعتقد اننا فى حاجة الى وقفة مراجعة وعلى اولياء الامور فى ثورتنا ان يفكّروا جيدا على امل ان يتركز الاهتمام بالداخل، أعنى ليبيا، ولا يفوت فوزيه ان تقول نأمل ان نراك من وقت لوقت، يشكرهما وينصرف، وفى الطريق يستعيد فى ذهنه الكلام الذى سمعه، وقفة مراجعة، الاهتمام بالداخل، الاشتراكية والتنفيذ، اللجان والحكم الخ، ترى ما الذى يقوله اولئك الذين وقعت على رؤوسهم القنابل والذين هدمت بيوتهم وهم نيام؟ وماذا يحدث مع الذين راهنوا على الحل الامريكى الذى يعتمد على القنابل والصواريخ ؟ وهل من وقفة مراجعة ؟؟

(3)

حدث العدوان الامريكى وقصفت الطائرات الحربية الامريكية طرابلس وبنغازى ذات ليلة باطنان من القنابل والناس نيام الا اولئك الذين كانت عيونهم مثبتة على شاشات الرادار فقد كانوا يقضين متنبهين، واولئك الذين كانت اصابعهم على المقابض والازرار فلم يفاجأوا وقد تعاملوا مع الطائرات المغيرة بما توفر لهم من قوة وخبرة يدفعهم الى ذلك قناعتهم بانهم يدافعون عن بلادهم وكرامتهم، وبرغم ان غلب الليبيين والليبيات قد دربوا على استخدام الاسلحة واعدوا لذلك، الا انهم لم يألفوا الحروب وان كانوا على بينة من ان بلادهم مهددة وان آبائهم واجدادهم دافعوا عنها ببسالة يذكرها لهم التاريخ الحديث بكل إكبار، الناس كانوا نياما وكان الهجوم الغادر فى الهزيع الاخير من الليل ومن نهض منهم وقد فتح عينيه وجد المبانى ترتج والسماء مضاءة بالشهب وأزيز الطائرات والصواريخ يصم الآذان وكأن الارض قد مادت او ان زلزالا بالغ القوة قد حدث، ومن خرج منهم وجد ان كل الناس قد خرجوا اولا ليتبينوا ما الذى يجرى وثانيا ليبتعدوا عن المبانى التى بدأت تتهاوى وكأنها من الكرتون، سيارات الاسعاف بصفاراتها تمرق فى الشوارع مسرعة، صار كل منهم يفكر فى نقل اسرته الى مكان آمن وذلك بالطبع احد وسائل الدفاع المدنى اذ لا يمكن ترك النساء والاطفال وانتظار المجهول، فاذا كانت المبانى تتهاوى والقنابل تتفجر والسماء تخترقها الشهب والازيز يصم الآذان فما الذى بقى ؟

اطفال ونساء وشيوخ تخترق بهم السيارات شوارع المدن فى كل اتجاه، المهم الابتعاد عن المبانى، امتلأت المزارع والاراضى الفضاء خارج المدن بينما استمرت الانفجارات ولم يبق الا اولئك الذين يقفون فى مرابض الدفاع، هؤلاء يدافعون عن الكل ويفكرون فى الوطن، لاحت تباشير الصباح وبدأ الضوء يمد خيوطه تدريجيا، صار الناس يستعيدون انفاسهم ويصحون من فجيعتهم، ومع بداية الصباح فى ذلك اليوم بدأت اذاعات العالم ووكالات الانباء تتناقل الاخبار . .

هجوم مفاجئ تقوم به طائرات الاسطول السادس الامريكى على مدينتى طرابلس وبنغازى فى ليبيا، الطائرات تقصف مقر العقيد القذافى والقواعد العسكرية ومواقع الصواريخ، العقيد قد يكون قتل فى مقره . . يصاب الناس بالذهول بادئ الامر ثم تسرى بينهم روح المقاومة والدفاع عن الوطن فيهرعون عائدين الى المدن، تبدأ وسائل الدفاع المدنى والانقاذ فى العمل، عشرات البيوت فى المدينتين تهدمت وتحولت الى اكوام من الحجارة المحروقة، عشرات النساء والاطفال تحت الانقاض، يفاجأ العالم بان الطائرات الامريكية التى قيل ان صواريخها وقنابلها قد برمجت على اهداف عسكرية قصفت المناطق الآهلة بالسكان المدنيين وان اطفالا ونساء قد قتلوا تحت الانقاض، يتوالى الهتاف ويتنادى الرجال، انه عدوان غادر، لقد جاءت بريطانيا وفرنسا واسرائيل لتغدر بالمواطنين فى بورسعيد فى الصباح الباكر سنة 56م وجاءت امريكا بعد ثلاثين سنة لتغدر بالمواطنين العرب الليبيين بعد منتصف الليل، ذلك غدر وعدوان وهذا غدر وعدوان، ولقد دافع اهالى بورسعيد عن مدنهم وثار العرب وانتفضوا فى كل مكان ليدمّروا المصالح البريطانية والفرنسية ثأرا لبورسعيد، نحن سندافع عن مدننا وسوف يثور العرب، كل العرب من اجل طرابلس وبنغازى، من اجل النساء والاطفال العرب فى ليبيا، انه الدم العربى والحمية العربية، الثورة فى كل مكان، اليس العدوان على بلد عربى وشعب عربى ؟

الليبيون الذين يقيمون فى مناطق بعيدة عن طرابلس او بنغازى استيقضوا على اخبار الاذاعات الاجنبية المعادية، بعضهم سمع الاذاعة الليبية بصعوبة وهى تبث الاناشيد الوطنية، اذن فان البلاد فى حالة حرب . .

يتساءلون ما الذى حدث ؟ كل يتحدث عن خبر الاذاعة التى سمعها فى ذلك الصباح، اخبار متضاربة والناس حيارى، بين مصدق ومذهول وحزين، تتواتر الاخبار وتثار الاشاعات، لقد كانت مأساة مروّعة ولكن قضاء الله لا راد له، هكذا يقول احد الرجال وهو لا يعلم حقيقة ما الذى حدث فى طرابلس وبنغازى بعد . .

الامهات اللواتى فقدن بناتهن او ابنائهن ينتحبن، كم هو من عذاب وألم ولكن الرجال لا يبكون او هكذا يجب، انها ساعات كمد ورغم ذلك فالوطن اكبر وأهم، كم يتمنى الانسان الذى ضحى كثيرا من أجل اطفاله ان يموت قبلهم او ان يصيبه هو ما اصابهم ناهيك عن ام فجعت فى ابنائها وقد تكومت فوقهم اطنان من الحجارة وهى تقف باكية تلطم خديها ناظرة الى تلك الآلة التى ترفع الانقاض يراودها أمل انهم احياء فتراهم وقد تمزقت اجسامهم وتهشكت رؤوسهم الصغيرة، كم تتعذب وكم تبكى وتتألم وتلطم الى ان يغمى عليها فتنقل الى المستشفى، واذا كان هناك من علاج لجسمها فسوف لن يكون هناك علاج لقلبها الدامى، أب يحمل ابنه بين يديه ولا يعرف الى اين، اسر بكاملها قضت نحبها تحت الانقاض . . !

يتقاطر الرجال الى مواقع الاحداث غير آبهين بالانفجارات المتجددة والقنابل المؤقتة واحتمالات الهجوم الثانى بواسطة الطائرات الحربية الامريكية، انها ساعة حزن حقيقى ولكن مع الحزن يولد التصميم والتضحية . .

تلملم قطع اللحم البشرى التى تمزقت وتوضع فى اكفان، انها الحقيقة التى لابد منها، لابد ان يموت الانسان ولكن ان يقطّع اربا وتهشم عظام

رأسه فتلك مأساة، مآتم وجنائز وبكاء وزغاريد، ان الوطن لا يموت والكرامة ليس لها من ثمن، سيل هادر من الناس فى طريقه الى المقابر لدفن الشهداء او اشلاء اجسام الشهداء، كان هناك سى احمد الدرويش الذى عرف فى تلك المنطقة بطرابلس وهو مظهر مألوف فى منطقة وسط المدينة بملابسه المزركشة وطبلته الصغيرة وصيحات الاطفال الذين يتبعونه من شارع الى آخر، كان دائما يردد (الحق زناد والشرع افلوس) يسّمر سى احمد الدرويش فى مكانه هذا اليوم على ناصية الشارع المؤدى الى المقبرة وقد وضع طبلته الصغيرة على الارض وفك الزرار الوحيد فى سترته المزركشة وكان يردد (الحق زناد) مقلّبا عينيه دون ان تستقرا على أحد، تنبه المشيعّون رغم حزنهم انه يقول حقا فبدأوا يرددون، الحق زناد الحق زناد، الكل يمر امام سى احمد الدرويش، يسمع لا آله الا الله محمدا رسول الله، يغمض عينيه ويردد الحق زناد، ولم ينفك يردد الحق زناد حتى وجد فى صباح اليوم التالى ميتا بنفس الناصية وقد قبض على تلك الطبلة الصغيرة وكأنه اراد ان يذّكر الجميع بان الحق للقوة ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وءاخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ يوف اليكم وانتم لا تظلمون،** صدق الله مولانا العظيم ـــ سورة الانفال 60 ﴾

وفى مكان آخر كان هناك من يحتفل مهللا ومرحبا بالعدوان الامريكى، بفندق سيسل فى الاسكندرية تجمع عدد من الليبيين منذ ظهيرة ذلك اليوم منتشين بخبر بث من اذاعة لندن وربما اذاعات اخرى يقول ان العقيد القذافى اما ان يكون قد قتل او انه هرب من البلاد، وكان فى يدى بعضهم منشورا وزّع فى الصباح يتحدث عن قتال فى شوارع طرابلس وبنغازى يقول ان قوات المعارضة تطارد مؤيدى القذافى بمعنى ان الليبيين يتقاتلون فى شوارع مدنهم ربما من اجل الحكم، ويخشى الانسان على عقله عندما يحاول تصوّر نوع الحكم الذى تأتى به البوارج الحربية الامريكية، تجمّع

هؤلاء اولا فى البار وتحلّقوا حول ثلاثة مناضد فوق كل منها عددا من زجاجات الخمر والكؤوس المترعة ونادل البار لا يهدأ متجولا بين منضدة واخرى فهؤلاء نشوانين وكأس الخمر لا تنتظر فى يد الواحد منهم اكثر من دقيقتين بحيث يكرعها دفعة واحدة فى جوفه، أليس هذا يوم النصر ؟ يتعالى صراخهم،كل يشرب فى صحة الآخر، المنضدة الاولى وهى التى تحادى حافة البار الدائرى المواجه للبحر عبر نوافد زجاجية كبيرة كان يجلس حولها ثمانية، كبيرهم يتصدر المنضدة وهو الذى يقرع الكؤوس ويشير بيده اليسرى للاخرين طالبا منهم تجرّع كؤوسهم، كان ذا جسم بدين مترّهل ووجهه محتقن كأنه مخنوق جبهته واسعة يرتدى بذلة افرنجية لونها كستانى كأنها شدت على جسمه شدا وحذاءه اسود مغّبر وعلى يمينه يجلس شاب ذا شعر اشعث وعينين دائريتين عسليتين يرتدى قميصا وسروالا امريكيا وينتعل حذاء طويلا ذى كعب عال ويضع ساعته فى معصم اليد اليمنى يظهر عليه تأثير الخمر اكثر من غيره وهو يتحدث بصوت عال قائلا انه ترك الدراسة فى بريطانيا لينضم الى المعارضة من اجل تحرير ليبيا وكلما انهى كلامه رفع كأسه طالبا من الآخرين مجاراته حيث يقف ليتجرع الكأس دفعة واحدة، وعلى يسار الرجل ذى الوجه المحتقن جلس آخر يرتدى قميصا وبنطلونا عاديا بينما ينتعل شبشبا من النوع الرخيص رأسه مستطيل وقد نزح شعره عن مقدمة الرأس، وجهه مستطيلا ينتهى بذقن مدببة وعينان غائرتان ذابلتان، وبقربه شخص آخر دقيق القسمات ذا شارب اسود كثيف وجهه يندّ عرقا كأنه يحمل اثقالا يحيط معصم يده اليسرى بساعة بيضاء بها فصوص لامعة من النوع الثمين وفى اصابعه عدد من الخواتم البيضاء ايضا وحول رقبته سلسلة ذهبية طويلة تبرز من خلال القميص المفتوح، وآخر يرتدى اللباس الليبى وان كان يعتمر بالطو اسود لا ينسجم مع اللباس الليبى وفى يده اليسرى سلسلة بها مفاتيح يهزها من وقت لوقت فتحدث صوتا مسموعا، وشخص آخر على حافة المنضدة قبالة الرجل التخين اسود

الوجه رأسه مدوّرة ككورة وشعره مدبب ينحصر فى قبة الرأس، وجهه عريض وعيناه ضيقتان يغمرهما البياض كفص ملح ويديه طويليتين كطول رجليه كما لو كان يمشى على اربعة، يحيط معصمه بسير جلدى عريض مفصّص اعلانا عن فتوته وفى يسراه سلسلة نحاسية صدئة يقول انها تعافى من امراض الروماتيزم، وحول المنضدة المجاورة عدد آخر لا يقل عن الاول يتصدر هذه المجموعة رجل نحيف طويل القامة شاحب الوجه اصفر البشرة كثير السعال لا يفارق السيجار شفتيه الا عندما يكرع الكأس فى جوفه حاد القسمات عالى الصوت، اما الآخرون فبين اعمار مختلفة، جميعا يتحدثون ويدّخنون ويقرعون الكؤوس وينادون النادل بصوت عال عندما يتأخر قليلا فى احضار الثلج او الماء او تغيير الاكواب التى تقع على الارض وتنكسر او آتيا بقماشة فى يده ليمسح الخمر المندلق على المنضدة، يبتسم وهو يمسح او يقدم كوبا ثم يعبر عن تبرمه عندما يعطيهم ظهره وقد خلى البار الا منهم لكثرة صياحهم وفوضاهم تعبيرا عن الفرحة فالوطن يحرر بواسطة البوارج الحربية الامريكية..

يقترح الرجل ذى الوجه المحتقن ضم المناضد الى بعضها بحيث يلتقى الجميع وجها لوجه تعبيرا عن وحدة الغاية وغايتهم بالطبع هى السكر فرحة بالتحرير والويل لأولئك الذين كانوا ضد امريكا، يمر الوقت سريعا بينما ينضم الى الجمع اثنان آخران جاءا بعد ان استمعا الى اخبار الاذاعات، يقفان قرب المناضد التى ضمت الى بعضها لتكوّن منضدة واحدة او هكذا خيّل اليهم، يسألونهم، ما هى آخر الاخبار ؟

الجميع ينظرون الى القادمين الجدد، احدهم وهو يرفع حاجبيه الكثيفين الاشيبين علامة على الحيرة وقد تعلّقت نظارته الطبية السميكة على قنبرة انفه الطويل المعقوف وهو عادة ما يدفعها الى وسط انفه بسبابته، يقول، لا جديد فالاخبار متضاربة ولكن القصف توقف، يقولها باشمئزاز، اما الثانى فيقول، لقد اغرقوا قوارب القذافى ودمروا طائراته ولعلهم هشموا رأسه،

يدعونهم للمشاركة فى الفرحة، فينظر احدهما الى ساعته التى يضعها هو الآخر فى معصم اليد اليمنى وهى صفراء ذهبية يلاصقها خاتم ذى فص لامع فى بنسر اليد ويقول انه ليس وقت البار وارى ان ننتقل الى النادى الليلى، يهتفون الى النادى الليلى، يقفون وينادى الرجل ذى الوجه المحتقن على النادل طالبا الحساب ويقسم بالطلاق ثلاثا انه سيدفع الحساب كله، يتدخل آخرون ولكنه يصّر لأنه لا يمكن ان يطّلق زوجته واذا ما طلق فهو لا يعرف ايهما يطلّق، الليبية التى جاءت معه ام المصرية التى تزوجها منذ شهرين، يضحكون، يتدخل الرجل ذى الوجه الشاحب، لاباس فليدفع وسندفع نحن فى السهرة، هذا يوم فرحتنا جميعا، يغادرون البار الى النادى الليلى الذى لا يبعد الا خطوات من البار وهم بالطبع من رواد المكان فلا حاجة بهم الى حجز مسبق، هناك كانت الموسيقى تصدح والطبلات النحاسية الصغيرة المثبتة على اصابع الراقصة تحدث صوتا يجعل الوسط يهتز، يحيّون الراقصة وفرقة الموسيقى والجلوس بالصفير ورفع الايدى الى أعلى، يتحلّقون على المنضدة المعدّة بينما تجر مقاعد ومناضد اخرى لتوضع فى محاذاة الاولى، يتجه احدهم مباشرة الى الراقصة ليعلّق على صدرها ووسطها وبين نهديها اوراق نقدية من فئة العشرون جنيها، تتساقط تحت رجليها وهى تهز جسمها، فيعود هذا الى حيث الآخرين مترنحا، تتقاطر زجاجات الخمر على المنضدة التى تضم عددا كبيرا من الناس، يتناولون الخمر كالماء ويتسابقون على افراغ الكؤوس فى بطونهم بينما اصواتهم تكاد تطغى على الموسيقى والغناء، احدهم يدعو الراقصة الى المنضدة، تأتى وهى تهتز وتطقطق تلك الطبلات النحاسية الصغيرة ترقص قرب الطاوله ولكنه يدعوها الى ان ترقص فوقها، يتدخل النادل قائلا انها مليئة، ينهره احدهما صارخا، انت مالك يا اخى فلتسقط زجاجات الخمر كما تتساقط الرؤوس الآن فى مكان قريب، توقف الراقصة الطقطقة التى كانت تنبعث من بين اصابعها لترفع الفستان الطويل الى اعلى وهى تتهيأ للوقوف فوق الطاولة،

يرفعون كؤوسهم جميعا فى صحة الرقص والفن والسعادة، يلتفت احدهم الى طاولة قريبة يجلس حولها رجل وزوجته وبناته مشيرا اليهم بكأسه، فى صحتكم، ينظرون اليه باشمئزاز، وبنرفزة يقول الرجل، اللهم صبرك يا رب، ترقص المرأة فوق المنضدة التى ضمت اليها مناضد اخرى فتهتز الكؤوس وتسقط زجاجة على الارض لتحدث فرقعة مما جعل الاعناق تدور فى اتجاههم، يبتسم احدهم ويقول، ولا يهمك يا جميل، ارقص يا واد، تهدأ الموسيقى وتضاء الانوار البيضاء بدل الحمراء والصفراء والخضراء وذلك يعنى ان البرنامج قد انتهى ولكنهم يصرّون على ان تستمر الموسيقى والرقص، انها ليلة فرح ولأنهم رواد المكان فلابد من المجاملة، تصدح الموسيقى من جديد وتبدأ راقصة اخرى فى هز وسطها بينما جلست الاولى الى الطاوله التى كانت ترقص عليها، يقدم اليها كأس خمر لكنها تقول انها لا تشرب هذا النوع من الخمر، يصفّق احدهم بيديه فياتى النادل ويطلب لها شمبانيا، تتناول الكأس وترفعه فى صحة الصحاب ولا احد يدرى ما اذا كانت فعلا شمبانيا وان كانت قد فرقعت عند فتحها، بصوت عال يقولون فى صحة الجمال والانتصار، المرأة وهى تبحلق فى الوجوه المألوفة لديها، انها لا تعرف ماذا يعنى الانتصار ولماذا فى هذا الوقت بالذات وقد تصورت انه يعنى استمرار الموسيقى والرقص، يقف اثنان ليرقصا، كان احدهما ذلك الذى يرتدى اللباس الليبى وان كان قد نزع عنه البالطو الاسود، والثانى ذلك الذى كان ينتعل شبشبا وكان هذه المرة حافيا ! لا يهم انها ليلة طرب، الليلة خمر وغدا أمر، وشارب الخمر اكثر الناس سفاهة، يأتون بالراقصة الاخرى الى الجمع وقد طلبوا من النادل ان يأتى بمقعد فيضطر الى احضار منضدة اخرى وبالتالى شمبانيا وعدد من زجاجات الخمر، لم يبق فى النادى الليلى احد فلقد جاوزت الساعة الخامسة والنصف صباحا، يأتى مدير الصالة ليقول صباح الخير يا بهوات، ينظرون اليه شزرا، يرد احدهم، صباح الخير ويقول آخر لماذا تذكّرنا بالصباح ؟ فيصيح ثالث، لا بأس

سنقرأ صحف هذا الصباح عندما نخرج، يعود الرجل الى الوراء دون ان ينبس بكلمة، هؤلاء رواد المكان ولا يجوز ازعاجهم، الراقصتان تحاولان الانصراف، يتبادلون النظرات، يقول احدهم، نحن لم ننته من شربنا بعد، ولكنهما تعتذران، تقول واحدة، الى اللقاء هذا المساء، يرددون، باى باى.. الى المساء..

كل منهم يصّر على دفع الحساب ولا احد منهم يعرف من الذى دفع، يخرجون مترنحّين تباعا كل منهم يتحدث ولا احد يسمع، بعضهم يغادرون الفندق والبعض الآخر يذهبون الى المطعم للافطار اذ كان احدهم يقيم فى الفندق وقد دعاهم للافطار، احد المغادرين كان الرجل التخين ذى الوجه المحتقن وقد وقف على ناصية الشارع قرب الفندق ميمما وجهه الى شاطئ البحر الجميل فى ذلك الصباح، ولكنه فى الواقع لم يكن يهتم بنسيم الصباح فى تلك الوقفة الا انه فكر اين يذهب، هل الى زوجته الليبية ام الزوجة المصرية الجديدة ؟ ولم يشأ ان يفسد عليه اولاده تلك النشوة والمزاج الرائق فدار على قفاه ليتجه الى ناحية الشاطئ حيث كان قد اشترى شقة لأقامة زوجته المصرية، وصل العمارة فحياه البواب عم سيد تحية الصباح رافعا يده اليمنى فرد ودون ان ينظر اليه صعد السلم الى الدور الثالث وقبل ان يطرق الباب توقف قليلا ليهدأ فقد كان كرشه البارز يهتز وانفاسه متقطعة وصدره يعلو وينخفض ومفاصل رجليه كأنما قد حقنت بماء بارد ويداه ترتعشان كمن يقترب من شئ خطير ودون ان يدرى السبب، ضغط زر الجرس عدة مرات ثم طرق الباب بشدة ولا رد، انتظر ثم عاود الطرق على الباب اعتقادا منه ان زوجته قد تكون ماتزال نائمة فهى عادة لا تصحو مبكرا الا فى حالات نادرة عندما تعد له افطارا، ولما لم يرد أحد هبط درجات البيت متمهلا حائرا فى امره، هل يسأل البواب الذى لابد انه يعلم متى ذهبت اذا لم يكن يعرف الى اين ؟ ثم ما فائدة السؤال الآن ؟ واذا عرف انها لم تنم فى البيت فماذا سيفعل ؟ وهل يحدث هذا كثيرا ام لا ؟ أتكون المرة الاولى

وقد تزوجا منذ شهرين بعد علاقة سرية طويلة ؟ ألم تقل له انها تحبه وانها مستعدة ان تعيش معه فى اى مكان وحتى مع ثلاث ستات اخريات ؟ أترى اقلقها تأخره وهى تعلم اين تقيم زوجته الليبية ولكنه حذرها من الاتصال بها ؟ أتراها ذهبت الى هناك واذا لم يجدها هناك فهل يستطيع ان يسأل ما اذا كانت قد جاءت او سألت ؟ ولم يكن قد بلّغ زوجته الليبية عن هذا الزواج وان كانت تعرف منذ زمن انه قلما يعود قبل الصباح من كل ليلة ولكنه كان يقول لها دائما ان لديه اعمال كثيرة وان هناك اجتماعات سياسية فى مكتب الجبهة ولابد انها سمعت باخبار التدخل الامريكى وسوف تفكر انه هناك لمتابعة التطورات والاحداث فى ليبيا،

وقف مترددا فى مدخل العمارة بينما كان عم سيد ينظر اليه بقلق ثم قال هل فيه حاجه يا بيه ؟؟ نظر اليه بعينين محمّرتين كأنهما جمرتان متلعثما كأنما لسانه قد بتر، فهم البواب انه يسأل عن السيدة (مايسه) وقد نطق اسمها بصعوبة بالغة . .

قال، الهانم خرجت اول الليل يا فندم

ركّز عينيه المحمّرتين على وجه البواب وهم بسؤاله، الى اين ؟ لكنه تردد وازدرد الكلمات حيث غادر المكان . .

شغله امر غياب زوجته عن الحدث السياسى والعسكرى وما اذا كانت امريكا قد قتلت القذافى، توجه الى حانة قرب العمارة على الطريق المؤدى الى المنتزه، طلب قهوة وماء بارد ثم غير رأيه وطلب بيره بارده جدا، تناول البيرة واحس بانسيابها فى امعائه خيطا باردا من حلقه الى قاع امعائه، خطر له ان يتلفن الى البيت، وفكر فى اختلاق كذبة مقبولة فهو لم ير اولاده منذ يوم الامس، ولكن ماذا سيقول ؟ تردد قليلا ثم عزم على الاتصال، يتناول الهاتف ويدير القرص فيرد صوت من الجانب الآخر، صوت متثاءب كأنه يغالب النعاس، قال هاللو، فرد الصوت النسائى هاللو، اجاب انا

عبدالله، ترد وهى غيرمتأكده، من المتكلم بينما كانت تفرك عينيها بيدها اليسرى وهى تمسك سماعة الهاتف بيمناها، هالو انا عبدالله، هل سأل عنى احد ؟ لقد تأخرت ولدى اعمال كثيرة بحيث يمكن ان اتأخر حتى اليوم، ترد، خيرا ان شاء الله، يقول بتبرم، لا، لا شئ، عمل فقط، يسأل مرة ثانية، لا احد سأل عنى ؟ ويفهم ان لا أحد سأل، يضع السماعة فى مكانها ويعود الى مقعده، يطلب زجاجة اخرى، يأتى النادل بالبيرة، يسأله عبدالله دون ان ينظر اليه، ارى ان لا أحد فى المكان فيرد النادل، يا بيه الوقت مبكر وسوف يمتلى المكان بعد الساعة العاشرة، الوقت صيف والناس تحب البحر، كل سنة وانت طيب، يصب البيرة وقد انفرجت شفتاه عن اسنان مصفرّة بسبب التدخين . .

يتناول عبدالله اول كأس من البيرة الثانية التى طلبها، يحك صلعة رأسه وينادى النادل، يأتى الرجل مهرولا فيقول له لقد طلبت بيره بارده وكأنى بك قد جئت بهذه، يشير الى الزجاجة، من الصندوق، يرد النادل ابدا يا بيه دى بارده قوى، يحدجه عبدالله بنظرة ازدراء، قلت انها ليست بارده، غيّرها، بانكسار يقول، حاضر يا فندم، عبدالله بينما كان ينتظر البيره يشرد بذهنه مفكرا وهو يقارن بين زوجتيه، الاولى كان قد تزوجها منذ ثمانية وعشرون سنة وانجب منها ثمانية بنات وولد واحد، كبراهن جاوزت السادسة والعشرين وقد هرب بهن من ليبيا منذ خمس عشرة عاما وهو دائم التفكير فى مستقبلهن او بالاحرى التخلص منهن وكان كلما سكر يقول بان البنات عوره لابد من سترها ولكن من يتزوجهن فى بلد البنات فيه زى الرز، ثم زوجته الجديدة وهى شابة جميلة ذات عينين نجلاويين وشعر حريرى طويل وأنف شامخ ووجه يميل الى السمرة المصرية المحببة ومضحك كأنه التبر على قوام خيزرانى صقيل، وهى دائمة الاهتمام بمظهرها وقد انتخبت ذات مرة فى النادى كأجمل انيقة ولم يشهدها فى اى وقت تقشر البصل او تدخل المطبخ الا نادرا، فهى ان انشغلت فانما باعداد ملابسها

وزينتها ولا تأكل الا فى النادى بين صديقاتها الكثيرات، وتحاشى التفكير فى اصدقاؤها اذ ان ذلك مثيرا للغيرة خصوصا انه لم يجدها فى ألبيت هذا اليوم، وقال له البواب انها خرجت خلال الليل دون ان يعرف الى اين، يتدارك، ربما تكون قد ذهبت الى والدتها عندما تأكدت أنه قد لا يعود الى البيت، ربما، فكر فى ان يتصل بوالدتها ولكنه استبعد الفكرة فهى كثيرة الطلبات رغايّة وهو يشعر بصداع فى شق رأسه ولن يكون قادرا على تحمل او سماع رغيها، يدلق بقية البيرة فى جوفه، يصفق بيديه طالبا النادل، فكر فى ان يطلب الجرائد لكنه لا يقرأ الا بصعوبة وهو ايضا مصدّع وعيناه تؤلمانه، اذن عليه ان يذهب الى احد الاصدقاء علّه يجد اخبارا سارة، ولكن ماذا عن زوجته واين يجدها؟ واذا وجدها ماذا سيقول لها ويفاجأ بالنادل وكان واقفا يسأله، افندم، فيطلب الحساب يرد النادل، ما بدرى يا بيه ولسه الناس ها تجى، يرد، متشكر، الحساب من فضلك، يدفع الحساب وينهض ولكنه لم يقرر الى اين سيذهب، هل يعود الى الفندق اذ ان كل الشلّة لابد ان تكون هناك ولابد ان الخبر اليقين لديهم، وكل الذى يتمنى سماعه ان يقال له ان القاعدة العسكرية الامريكية التى سماها الليبيون ظلما وعدوانا باسم عقبة بن نافع قد اعيدت تسميتها باسمها الحقيقى وهو (هويلس) ولا يهم ما اذا كان الحكم سيكون ملكيا او جمهوريا طالما ان الامريكيين هم الذين حلّوا المشكلة. .

يستقل اول سيارة اجره ويطلب من السائق الاتجاه الى فندق سيسل، السائق يستوضح، افندم، يرد فندق سيسل يا ريس، كان جسمه المكتنز وخصوصا من اعلى مضغوطا وقد احس بالضيق وكأن سترته قد انكمشت، وجهه المحتقن زاد احتقانا ربما بسبب الخمر او ربما لأن هواجس كثيرة قد داخلته، ومن سيارة الاجره ترجّل امام الفندق، يقف لحظة وكأنه اراد ان يغيّر وجهته ولكنه ما لبث ان دلف الى الداخل فحياه المدير الذى يقع مكتبه على الجانب الايسر من مدخل الفندق وهو يشاهد الداخل والخارج من

ذلك المكتب، فاذا كان الداخل احد الذين يعرفهم خرج لتحيته وهكذا فعل مع عبدالله وان كان هذا لم يقف عنده بالرغم من انه قد دعاه بكل لطف لتناول القهوة فى مكتبه، اتجه مباشرة الى البار وكان هناك عددا من الليبيين يتحلقون حول منضدة دون ان يكون بينهم زجاجات خمر، وذلك غير مألوف بالنسبة لهؤلاء، فخمّن عبدالله بان هناك شيئ ما يخيم على الجو، سلّم وجر كرسيا أحدث بجره صوتا كصرير الاسنان ولكنه لم يأبه باحد، بحلق فى وجوه الجلوس المكتئبة، وسأل ما الاخبار ؟ ويظهر انهم قد تجادلوا كثيرا بحيث وجدهم عبدالله سكوتا وكل منهم ينظر فى اتجاه، يقول احدهم مصيبة، القذافى لم يمت وقد اذيع ان الدفاعات الليبية قد اسقطت عددا من الطائرات الامريكية وان الامريكيين قد لا يعاودوا القصف وهناك مظاهرات وتأييد شعبى فى ليبيا وخارجها وان الدول الاوربية الغربية نفسها لم تؤيد الغزو الامريكى،

عبدالله، وما العمل اذن ؟ لا فائدة، صب جام غضبه على امريكا وريغان، يقذف بسيل من الشتائم، كيف لم يحتلوا، كيف لم يقتلوا القذافى ؟ ألم يقولوا انهم برمجوا الصواريخ والقنابل وان الطائرات ال. . . .نسى اسمها

احد الجلوس، طائرات ال (ف 111)

عبدالله، ايوه، قالوا انها لا تخطئ، يتوقف، يحك ذقنه ويضيف، ألم يقولوا لنا فى المنشور يوم امس ان قوات المعارضة تقاتل مؤيدى القذافى فاين هؤلاء ؟

آخر، ايه يا سيدى كله تهويش، فاذا كانت امريكا لم تفعل شيئا مؤثرا ماذا يمكن ان تفعل المعارضة ؟

ثالث، وكان يجلس بعيدا عنهم ذى نظارات طبية سميكة ولباس افرنجى عادى يمسك بمسبحة فى يده اليمنى وهو يحرك حبيباتها بعصبية، شعره

املس مسترسل وان كان قد انحصر عن الجبهة الى الخلف دليلا على بداية غزو الصلع، حرك كرسيه وهو يوّجه الكلام الى الجلوس، يا اخوه ان هذا الذى تقولونه عيب فلا يجوز ان يبلغ الحقد بالانسان الى درجة يجعله ضد أهله وبلاده ثم ماذا تستفيدون اذا كان الامريكان قد احتلوا البلاد وأتوا بحكم آخر ؟ وهل تتوقعون ان يعود الملك ادريس حتى لو كان حيا ؟

يرد عليه عبدالله بنرفزة، انت عميل وحاقد وانا استغرب كيف اننا سمحنا لك بالبقاء معنا هنا ؟

الرجل ذى النظارة الطبية، لقد تركت بلادى طوعا وما رغبت العودة اليها طوعا واقيم هنا بحريتى وانا لست عميلا لأحد لكننى لا اشمت فى بلادى وقد تمنيت ان يفشل الامريكيون، وها قد فشلوا والحمد لله..

رابع، انت عميل للقذافى ولابد انك.... يتوقف عن الكلام..

آخر، من الغريب اننا لم نعرف عنك هذا الموقف من قبل، لابد انك مدسوس علينا..

الرجل ذى النظارات الطبية، باستهزاء، قولوا ما شاءت لكم خيالاتكم المريضة اما انا فاننى لست مع القذافى فى بعض الامور ولكننى لست ضد بلدى..

أحدهم باستغراب، فى بعض الامور !! اذن انت معه فى البعض الآخر ؟ ودون ان يتمكّن من الرد تكلموا فى وقت واحد، لابد ان نطلب التحقيق معك ونبلغ المخابرات فى..... بهذا الموقف فورا..

يلتفت الرجل فى الاتجاه الآخر غير عابئ بما يقولون..

عبدالله، بعض الناس كالافاعى اذا ربيتها فى جنبك فانها لابد ان تلذغك بمجرد ان تحس بالدفء، وهذا الافعى احس بالدفء لأن القذافى لم يسقط لكننا سوف نناضل، يسكت قليلا ويتذكر زوجته التى خرجت

منذ الامس وهو لا يعرف عنها شيئا وكذلك الفندق الذى يديره ولم يراجع حساباته منذ يومين وكسارة الحجارة التى كان يجب ان يتسلم كل يوم قيمة مبيعاتها، وزوجته الاخرى وبناته الخ.. ولكن لابأس، لابد من كأس يهتف فى من حواليه، ماذا عن كأس من الخمر ؟ يوافقون فيصّفق طلبا للخدمة، يأتى النادل مهرولا، تفضل يا بيه..

هات ويسكى..

كؤوس يا فندم ؟

عبدالله بتحدى، لا، هات زجاجة كاملة..

الرجل ذى النظارات الطبية، دون ان ينظر وبصوت خفيض، لا حول ولا قوة الا بالله، كفر وخمر وزندقة، انه الرزق الحرام..

جاء النادل بالخمر والكؤوس ثم عاد ليأتى بالماء والثلج، عندما حاول ان يفتح الزجاجة مسك عبدالله يده قائلا، اريد ان افتحها بنفسى لأتأكد انها غير مغشوشه، ترك النادل الزجاجة وهو ينظر باستغراب..

عبدالله يفتح الزجاجة ويملأ الكؤوس ثم يضع الثلج، يحاول احد الجلوس ان يسكب له بعض الماء فيقول، لا اننى اريد ان اسكر اليوم حتى الثماله، يضحك فتظهر تلك الاضراس الذهبية المحاطة بمادة متكلسة سوداء، يرفع كأسه، فى صحتكم، وتحين منه ألتفاتة الى الزاوية اليمنى من الجانب الآخر فى البار فتقع عيناه على امرأة ورجل يجلسان حول طاولة بعيدة عن نافذة الزجاج المطل على الشارع وكأنهما يختفيان عن الانظار، المرأة كانت تجلس وظهرها فى اتجاه المدخل، خيّل اليه انها تشبه زوجته مايسه ان لم تكن هى، فهى فارعة الطول وهذا ما تدل عليه جلستها بينما شعرها حريرى احمر منساب وعنقها طويل يميل الى السمرة، ثبتّ عينيه عليهما علّها تلتفت..

احدهم يسأل عبدالله، اراك مغموما شاردا ؟

عبدالله كمن لذغه عقرب ينتفض قائلا، لا، لاشئ، يرفع كأسه ليجرعه دفعة واحدة ويمطّ شفتيه متنهدا، ان الويسكى هو الدواء الوحيد فى العالم لعلاج السأم والألم فى وقت واحد، يضحك ويمد يده الى الثلج ثم يملأ الكأس ولكن عينيه لم تفارقا تلك الجالسة، يفكر، ربما هى، او لابد انهما سيخرجان وهو جالس فى المدخل تماما وليس هناك من مكان آخر للخروج، ثم هل تجرؤ مايسه على الجلوس هكذا مع رجل فى مكان عام ؟ أيكون شقيقها اذا كانت هى فعلا؟ يتذكر، ابدا ان شقيقها الوحيد يعمل الآن فى ليبيا فقد كان تحايل على احد الاصدقاء بحيث مكّنه من العمل هناك ارضاء لمايسه، يكرع الكأس ويطلب من الآخرين افراغ كؤوسهم، احدهم يحتج، لقد بدأنا مبكرا وستضيع سهرة الليله،

عبدالله يسمعه ولا ينظر اليه، تحين ألتفاته من السيدة الجالسة، خيل اليه انها رأته وان المفاجأة قد جعلت جسمها يرتجف، أليس هو زوجها وهو الذى وفّر لها شقة تمليك وسيارة نوع بيجو 504 مكيّفة ؟ والكثير من ارقى انواع الملابس واحسن السهرات والرحلات وان لم يكن يرافقها فى رحلاتها الصيفية الى قبرص او اثينا او فرنسا خوفا على نفسه فهو عضو بارز فى المعارضة الليبية ولابد انه على قائمة المطلوبين للقذافى وامريكا تقول ان اعوان القذافى يغتالون المعارضين وهو يصّدق امريكا، هكذا يعتقد، يرى جانبا من وجهها فقط عندما مالت برأسها، وجزم على انها هى ذاتها، زوجته مايسه، وها قد حانت فرصة الحساب، يتصاعد الدم مسرعا الى دماغه ويعصر قلبه، لقد قال له البواب انها خرجت منذ منتصف الليل ولم يكن يشك فى اخلاصها ولا كان يرفض لها طلبا، يملأ الكؤوس ولكنه قبل ان يضع الثلج فى الكأس ينهض ويتجه الى حيث تجلس تلك السيدة يتابعه رفاقه بعيون قلقة، يقف قرب الطاولة فاذا هى فعلا مايسه وقد فوجئت به يقف على رأسها متجهّم الوجه محتقنه غائر العينين عاضا على طرف شفته الغليظة الايسر، نظرت اليه ونطقت اسمه لكنه قبض على شعرها وجرها

منه وهى تتأوه فتدخل رفيقها ولكن عبدالله بادره بلكمة قوية موجعة فوقع على الارض وتدخل آخرون بينما تعالى صراخ المرأة، وكان عبدالله يتوقع من صحبه ان يبادروا الى نجدته ولكنهم تركوا المكان الواحد تلو الآخر، انهالوا على هذا المعتدى السكران الذى لا يحترم السيدات لكما وركلا، المرأة تصرخ وهو يتلوى على الارض اثر الركل صائحا، انها زوجتى، جاء مدير الفندق وآخرون وقد تدخل شرطى كان بالصدفة امام الاستقبال وبعد ان فض العراك اصّر عبدالله على ان يتم التحقيق ورغم محاولة مدير الفندق تهدئة الموقف الا انه تحت تأثير الخمر لم يوافق على اى تسوية، نقلوا جميعا الى قسم الشرطة فى المنطقة للتحقيق، كان عبدالله يتحدث بصوت عال، انها زوجتى وهى خائنة وقد وجدتها مع رجل غريب، سوف اقتلها، ان لحمها ودمها من مالى، كان ذلك الرجل ذى النظارات الطبية ويدعى محمود هو الوحيد الذى بقى ليشاهد كل شئ، وعندما خرجوا قال، حمدا لله فقد كان حسابه سريعا . .

لم يتذكر عبدالله ان ما حدث فضيحة وانه كان قد اخفى زواجه عن اولاده وزوجته الاولى الا بعد ان بدأ التحقيق وفتح المحضر، بدأ التحقيق معه باعتباره معتديا وقد جعل يتعلل باسباب كثيرة إلا انه فى النهاية اضطر ان يعترف للضابط المحقق ان السيدة المعتدى عليها هى زوجته وهى تدعى مايسه وتوسّل اليه ان يصلح بينهما وانه على استعداد ان يتنازل عن كل شئ، قال الضابط انك المعتدى وبالتالى سوف لن استطيع ان افعل شيئا الا اذا تنازل المعتدى عليهما عن حقهما . .

يحلق عبدالله فى وجه الضابط بعينين حائرتين وهو يردد، اذا تنازلا عن حقهما !! وتساءل من هو صاحب الحق يا بيه زوجها ام عشيقها ام هى ؟

الضابط، بالنسبة للتحقيق فانت المعتدى اما الزوجة وما تدعيه انت خيانة فتلك قضية اخرى، انها مسألة شرعية . .

يطلب عبدالله من الضابط ان يدعوها لمواجهته واعدا بانه سيكون لطيفا معها . .

تدخل المرأة وقد تهدّل شعرها وتوزع بين صدرها وكتفيها وظهر على وجهها انزعاج وحيرة، وعندما نظرت فى وجه عبدالله ارتعشت شفتاها الجميلتين اللتين تشبهان احمرار الكرز فى شهر يوليو، وكانت تحاول اخفاء خجلها ولكنها لم تتكلم . .

سألها الضابط، يقول السيد عبدالله انك زوجته، فطأطأت رأسها دون ان تنطق، وعاود السؤال، فقال هل هو كذلك ؟ سبقها عبدالله وقد خيّل اليه انها تنوى اثارة امور اخرى قد تؤدى به الى السجن، فهى تعرف الكثير عن نشاطاته التى يسميها تجارية ولابد انها تنوى الانتقام منه، قال، انها زوجتى يا حضرة الضابط ولقد اخطأت التصرف عندما رأيتها مع الرجل الذى لم اعرفه فى ذلك الوقت وربما يكون ذلك بسبب الاكثار من الخمر ولذلك فاننى اود ان اعتذر وسوف نسوّى الامر فيما بيننا . .

لم ترد مايسه ولكنها نظرت اليه باستغراب وادركت ماذا يعنى، إلا ان الضابط ذكرّ عبدالله بان الطرف المعتدى عليه ليس هو زوجته فقط بل انه مواطن آخر وقد يرفض التنازل . .

نظر عبدالله اليه مستجديا واجال عينيه بين الضابط وزوجته التى ما تزال واقفة، لكنها وقد ادركت موقف زوجها الضعيف، اجابت، لا يا حضرة الضابط، اذا تفضلّت فان صديقنا، هكذا قالت، صديقنا، لن يمانع فى التصالح . .

وبادر عبدالله بالقول مستدركا، نحن اصدقاء وسوف نسّوى الامر بلا عناء او مشاكل . .

الضابط بعدم مبالاة واستهزاء، تقول انها زوجتك وقد خانتك مع رجل لا تعرفه وكنت ثائرا تهدد وتتوّعد ثم تطلبها للمصالحة وتقول عن الرجل انه صديقك ! لا افهم . .

عبدالله وهو مطأطئ الرأس يقول فى سره، كنت اراهن على سقوط القذافى وسقوط نظامه واشتراكيته واذا بى اسقط فى الحضيض لسوء افعالى وخيالى الواهى . .

يسأله الضابط، فيم انت مطرق ؟

ينتبه فجأة على صوت الضابط، لا، لاشئ، هل يمكننا مغادرة القسم ؟ هل انتهى كل شئ . .

الضابط بعدم اكتراث، انتهى حسب ما اردتما . .

(4)

خرج عبدالله من قسم الشرطة يتأبط ذراع زوجته مايسه وكأن شيئا لم يكن وقد احس ان من الحكمة تلافى الامور قبل تفاقمها باعتبار ان الزوجة صفقة تجارية خاضعة لظروف العرض والطلب وماذا يضيره اذا ما نكص عما قاله فى الفندق وبلع مشاعره، يهز رأسه مرددا، الكذب فى المصالح يجوز، وهى امرأة شهية فاتنة وهو بغريزته يحب هذا النوع من النساء بالاضافة الى انها تعرف الكثير مما يجب الا يعرف ولكنه لم يكن ليستطيع ان يخفى شيئا عنها كلما نظر فى عينيها وان ما حدث فى فندق سيسل انما هو امر طارئ حدث امام عدد من السكارى الذين لا يذكرون عادة ما يحدث امامهم بعد الزجاجة الثانية، كان هذا يدور بذهنه عندما خرج يتأبط ذراع مايسه دون ان يتحدث اليها ولا هو ألتفت الى ذلك الرجل الذى كان معها او سأل عنه ولعلّه غادر القسم قبل خروجهما منه

نظرت اليه بارتياب عندما خرجا من القسم وسألته، الى اين نذهب ؟

فوجئ بالسؤال وقبل ان يجيب قال، هل انت غاضبة ؟

اجابت، لا افهم على اى نحو تصرفت هكذا، وكان الاجدر بك ان تسأل وتتأكد ثم تتبين قبل ان تحدث ذلك التصرف الاهوج الذى فرّج علينا الناس ! توقفت عن الكلام وقد عزمت على جعله يندم على ذلك التصرف الذى يجب ان تظهره وكأنه مشين ومعيب . .

عبدالله فى تودد وجزع، حرى بمن يقدّس الحب ان ينفعل وان يؤتى اعمالا اكثر مما فعلت، وانت تعرفين مقدار حبى لك وتضحياتى من اجل راحتك وسعادتك

ترد ببرود، الى اين نذهب ؟

باستغراب، الا تعرفين اننا فى اتجاه شقتنا ؟

أجابت بحدّة، لا، اريد ان اذهب الى ماما وعليك ان تذهب تراجع نفسك وتهدى من روعك . .

يجيب بانكسار شديد، أتخافين منى ؟ اننى ما اردت بك سوءا وتعلمين اننى اعيش ظروف صعبة ومعقدّة، منها وضع اسرتى ومنها الاحساس بالفشل فى العملية العسكرية، يتوقف عن الكلام . .

تتساءل، اى عملية عسكرية ؟ تحدجه بنظرة حادة . . !

يجيب، لقد عوّلنا كثيرا على اسقاط نظام القذافى بواسطة الولايات المتحدة الامريكية، وقامت امريكا بعمل عسكرى وكان من المتوقّع ان يقتل القذافى وان يتغير نظام الحكم هناك بحيث نخلص . .

تسحب ذراعها من تحت أبطه، وتسأل بفتور، وما فائدة انتهاء الحكم هناك كما تقول ؟

نظر اليها بتعجب متسائلا، كيف ؟ اذا سقط نظام الحكم فسوف نعود الى ليبيا وقد اشغل منصبا وزاريا وستعيشين هناك فى عز، بضحكة باهتة، زوجة سعادة الوزير . .

تنظر اليه وهى تلّم شعرها الذى بعثرته نسمة الهواء حيث اقتربوا من شاطئ البحر، وبكلمات لا تكاد تسمع متهكّمة، أويكون الوزير فى ليبيا ممن يتهجّون الحروف بصعوبة بالغة ؟

يحك رأسه بيده اليمنى التى كانت تتأبط ذراعها ويقول، اموالى ورصيدى النضالى اكبر من كل العلوم . .

انتابها شعور كراهية ونفور، ودون ان تنبس بكلمة، تردد فى سرها، يعتقد هذا المعتوه انه يستطيع ان يشترى كل شئ بالمال الحرام الذى كسبه دون جهد او عناء كما يعتقد انه اشترانى، تقف فجأة وهى تطلب منه ان يتركها لتذهب الى امها وعليه ان يذهب الى اسرته . .

بنرفزة، اوه اى اسرة هذه ؟ لابد ان نجلس معا لنتفاهم . .

قلت اننى سأذهب الى ماما . .

يطرق مفكّرا، وفى سره يقول لعلها ستذهب الى هذا العشيق الذى خرج لى فجأة من تحت الارض، يذعن لطلبها ولكنه يسأل، أين السياره ألم تأتى بها ؟

أجابت، لا، وحتى لو كانت هنا ما امكننى قيادتها، اعصابى تلفانه، تقولها بقرف . .

يقف فى مكانه وهو يتابع سيارة التاكسى التى اقلتها الى ان تختفى عن ناظريه، يدور فى الاتجاه الآخر وقد فكر فى الذهاب الى الفندق ثم استبعد الفكرة متحاشيا الأسئلة وربما شماتة اولئك الصحاب، كان متوترا وكان خائفا ومرتابا عندما جعل يخطو فى اتجاه البيت الذى تقيم فيه اسرته فربما يكون احد اولئك الشياطين الذين كانوا معه فى الفندق قد ابلغوا اسرته بما حدث وماذا تراه سيقول اذا ما حدث ذلك ؟ أحس وكأن قلبه يسقط فى امعائه، يتذكر، لقد كان يهرب من البيت متعللا بكثير من الاعذار وكانت زوجته دائمة الشكوى فهى لا تريد الغربة ولا تعرف لماذا بقت كل تلك المدة بعيدة عن بلادها واقاربها، وهى ايضا حائرة مع بناتها اللواتى انتابهن القلق منذ مدة وانها لراجعة مهما كان الامر اذ ان اقصى ما تتمناه هو ان تزف بناتها الواحدة تلو الاخرى وان تعيش شهورا كاملة من الافراح ذلك ان ستة من البنات الثمانية قد بلغن سن الزواج، اثنتان تجاوزتا تلك السن، ولولا الغربة المقيتة لكان احفادها الآن فى سن الدراسة، كانت هذه دائما شكواها وكان هو يمنيّها بالعودة، شعر بألم شديد يعتصره، ماذا سيقول وهل ينفع

الندم ؟ ثم يطمئن نفسه اذ ربما تكرّم السيد ريغان وقام بزيارة اخرى بطائراته الى المدن الليبية ليسقط الحكم، يتنهد، لقد صبرنا كثيرا، يسرع الخطى ولكن ليس الى البيت بل الى الفندق الذى يديره ثم يذهب الى الكسارة ليحاسب العاملين وبعدئذ يعود الى البيت ولربما عرف ما اذا كان احدا من اسرته قد سأل عنه، داخله سرور بالفكرة التى طرأت عليه ولكنه سرعان ما قطّب جبينه عندما خطر له ما حدث هذا الصباح وكيف ان زوجته الجديدة تركته ولعلها الآن فى احضان ذلك الصديق الجديد انتقاما منه، ولكن ماذا عساه ان يفعل فاذا خاصمها فسوف يكون فى الموقف الضعيف الخاسر فهى تملك الشقة والسيارة وهناك حساب فى البنك باسمها وما يزيد الطين بلّة انها يمكن ان تفضح اسلوبه التجارى مما يؤدى به الى التهلكة، احس بهزال شديد واعياء بالغ اذ انه افرط فى تناول الخمر ولم ينم وقد عاش على اعصابه عندما اختلق تلك المشاجرة الخاسرة، تبا لها من حياة..

شعر بان رجليه لم تعودا قادرتان على حمله وهو ثقيل اصلا ولكن هذا الذى حدث طارئ، تأوه، وحاول ان يستحث الخطى علّه يصل مدخل الفندق، خارت قواه فسقط على الارض وكان وجهه شاحبا وعيناه غائرتان وكأنه قد مات، سعى اليه نفر من المارة فاذا به قد اغمى عليه تماما وقد تجمعت رغوة فاقعة حول فمه، نقل الى المستشفى القريب وبعد فترة من العلاج السريع لم يفق تماما ولكنه كان يهذى.. امريكا.. القذافى.. الفندق.. الكساره.. زوجتى.. الشقة.. الحساب..

يبحلق بعينيه الغائرتين، يتساءل بصعوبة بالغة، اين انا ؟ لم يجد احدا غير ممرضة كانت تنظر اليه باشفاق شديد، قالت، لابأس عليك انت فى المستشفى، نظر اليها بتلكم العينين الغائرتين سائلا، منذ متى ؟

قالت، منذ ساعات ولكن لا تقلق..

ردد، لا اقلق، يقطبّ جبينه ويغمض عينيه ويمضى فى غيبوبة، يهذى، الحكومة، الوزارة، الاسرة، الاعمال، العودة..

تضع الممرضة الكمادات على رأسه وجبهته حسب تعليمات الطبيب..

يفيق قليلا فيطلب ابلاغ اسرته، يتذكر رقم الهاتف بصعوبة بالغة وينطق اسم ابنه بصعوبة اكثر، يقول انه ادريس، ادريس عبدالله..

تعود الممرضة وقد احضرت ثلجا وضمادة علّها تساعده على ان يهدأ، كان العرق يغطى وجهه وعيناه غائرتان ولسانه ممتد يكسوه البياض، لم يعد قادرا على الكلام يشير اليها بيده وكأنه يسأل، لا تعرف ماذا يريد، تطلب الدكتور فيأتى مسرعا، يمسك بمعصمه ليتحسس دقات قلبه، يظهر على وجهه الانزعاج ويأمر له بحقنة فى الوريد، يهدأ ويغيب فى نوم عميق، يرى نفسه فى مجلس من الرجال يتشاورون فيما يجب ان يكون عليه الحكم وكيف يكون توزيع المناصب الوزارية ومن الأحق بهذه الوزارة او تلك، وكيف تجرى الانتخابات البرلمانية، الخلاف حول عدد الاعضاء المعينين فى مجلس الشيوخ والنواب، يحتد فى موقفه اذ لابد ان يكون للذين عارضوا الحكم السابق الرأى الاول وإلا ما فائدة ذلك النضال والحرمان والاغتراب ؟! يتذكر ذلك الرجل ذى النظارات الطبية السميكة وذلك النقاش الذى دار بينهما فى فندق سيسل منذ مدة وكيف انه لم يكن معارضا بالمعنى الحقيقى للمعارضة، ويجده هنا يجادل فى امر ما كان له فيه من حق، ألم يكن مع القذافى وقتئذ ام تراه الآن قد بدّل جلده وكيف انه يتحدث الآن عن القانون وضرورة الالتزام بانتخابات يسميها حرة وان توزيع الدوائر الانتخابية يجب ان تراعى فيه النسبة السكانية وما كان له ان يقول هذا لو كانت مؤتمرات القذافى الشعبية ما تزال تحكم، ينظر الى هذا الرجل باحتقار ويذكّره كيف كان موقفه عندما قررت امريكا اسقاط الحكم لصالح المعارضة وانه لولا امريكا ما كان يمكن ان يتحدث اليوم عن القانون والدستور والبرلمان ؟! ولهذا فهو يصرّ ان المعارضين الاصلاء هم اصحاب الحق فى الحكم الجديد وان الاعضاء المعينين فى مجلس الشيوخ والنواب لابد ان يمثلوا القبائل التى كانت ضد النظام السابق، تجرى الانتخابات وتتشكل الوزارة التى يحظى

فيها بمنصب وزير النفط، ومن يكون أحق بهذا المنصب الخطير منه؟ ذلك ان النفط يمثل الدخل الرئيسى للبلاد ويجب ان يكون المنصب من نصيب الاغنياء الذين يقدّرون قيمة رأس المال ويتقنون فنون استثماره، فى الجلسة الافتتاحية للبرلمان يلقى خطاب العرش الذى يشير بتفصيل متقن الى خطط المشروعات الانمائية ورفاهية الشعب وتمتين العلاقات مع العالم الحر، وفى الجلسات العامة يتحدث عن السياسة البترولية والتعاون الليبى الاوربى وكان خطابا طويلا يقاطع بتصفيق حاد، ويتذكر هنا زوجته التى هزأت به عندما قال لها انه سيكون وزيرا فى الحكم الجديد وانها ستكون زوجة الوزير المحترم، وعندما قالت أيكون الوزير فى ليبيا ممن يفكّون حروف الابجدية بصعوبة، وها هو الآن يقاطع بالتصفيق الحاد بينما الجلسة منقولة بالتلفزيون ليتابع الشعب نوابه ووزراءه ولابد انها تستمع اليه فى هذا الوقت، وبعد انتهاء الجلسة يعود الى البيت فى سيارة فارهة واذ تتوقف امام البيت يهرول السائق الى الجانب الذى يجلس فيه معالى الوزير ليفتح الباب، يترجّل عبدالله من الباب الخلفى يتقدمه كرشه الذى زاد انتفاخا وبذلته الليبية بتلك الجبّة الواسعة المزركشة والمطرزة بخيوط من حرير تخلب لب الناظر، تقابله مايسه فى المدخل بينما يندفع اليه ابنه سامى ليشبك يديه الصغيرتين حول عنقه، يقرر وقد انتهت مهمته بعد ان ادلى بذلك البيان الضافى فى البرلمان عن السياسة البترولية ان يسافر بزوجته مايسه وابنه سامى الى ايطاليا فى اجازة كعادة الوزراء عند انتهاء الدورات البرلمانية، وفى الطائرة يحدث ما لم يكن متوقعا فتهوى من عليين الى الارض بسرعة جنونية وتنفجر لتتوزع قطعا صغيرة بمن فيها من بشر محدثة كوّة ملتهبة عالية من النار والدخان يختلط فيها النفط بالدم واللحم، يقفز من نومه شاردا وكان جسمه يختض وعيناه شاردتان، يتمتم بكلمات غير واضحة، استغفر الله، انه حلم مرعب، ينظر حواليه فترتسم له صورة ضبابية امامه حاول ان يتبينها وقد عاودته نوبة الألم وكأن يدا حديدية تقبض على قلبه لتمزقه اربا، تأوه ومد يده الى ذلك الشبح لكنه وقع على الارض وقد لفض نفسه الاخير . .

(5)

صوان كبير اقيم امام بيت الاسرة والمعزّوم يتقاطرون على المكان رجال ونساء، ألم يكن المرحوم صديقا لهم ورفيق سهراتهم ؟ سبحان الله ما اضعف الانسان فقد كان المرحوم منذ يومين فقط يشرب زجاجة الخمر وهو واقف دون ان تهتز من رأسه شعرة وكان صحيحا معافيا تراود ذهنه آمال عراض يعبر عنها دائما بكلماته الرنانة ومستقبل يراه باسما يتجلى فى نكاته وضحكاته الطويلة التى تسمع عن بعد امتار من مكانه ولكنها سنّة الحياة، كلنا لها، يقول ذلك احد اصدقائه وهو يداعب حبيبات مسبحة صغيرة تستعمل للتسلية . .

يتعالى صراخ وعويل النسوة من الداخل وتلك عادة مألوفة فى حالات الوفاة، فهو وان لم يكن قريبا من زوجته وبناته ولا كان يحسن لأحد من الاسرة وقد مات دون ان يرونه منذ ايام فان مشاعر الناس تهتز امام رهبة الموت، والدموع تنهمر من المآقى ترحما، ومن عادة النساء ان يصرخن ويلطمن الخدود حتى لو لم يكنّ فى حالة حزن شديد، وهكذا الحال بالنسبة لأم بناته التى عانت من حماقاته الكثير وقد تكون احست بباب الفرج ينفتح وتنزاح تلك العقبة التى كانت تحول دون عودتها الى وطنها ذلك ان امنيتها ان تدفن فى المكان الذى دفن فيه ابويها عندما تحين المنية، تتسارع حركة اصابع الرجل الذى يحرك حبيبات المسبحة ويردد، لا إله الاّ الله كل من عليها فان . .

ولقد اختلفت الروايات فى سبب الوفاة والازمة القلبية، فمن قائل انه شئ طبيعى ان تحدث الوفاة فى هذه الايام بسبب مرض القلب والازمات المفاجئة، ومن يقول ان وفاته كانت نتيجة لما حدث مع زوجته الجديدة وذلك الموقف الذى واجهه فى الفندق وكان هؤلاء من صحابه الذين كانوا هناك، وفى مثل هذه المناسبات يتحدث الناس فى مختلف الامور بدءا من سيرة المتوفى الى مواعيد الغرام الى اصطياد السمك والسياسة والحكم والادب والفن الخ وقد انصب حديث رفاقه على الوفاة واسبابها وخصال صديقهم وعاداته وممتلكاته ثم قصة زواجه الجديد الذى علموا به اخيرا ومنهم من لم يكن يعلم به قبل حادث الفندق وقد تساءلوا ما اذا كانت اسرته تعلم وحاولوا ان يكون الحديث همسا لكى لا يسمعه ابنه المدعو (ادريس) وقد اسماه المرحوم بهذا الاسم تيمنا باسم الملك ادريس السنوسى، وقد تردد اسم مايسه كثيرا فقال احدهم ولم يكن موجودا اثناء حادث الفندق، أليست مايسه هى تلك الفتاة الجميلة التى كانت ترقص فى الشاطبى وتذّكر ان المرحوم كان قد دعاها ذات مرة الى طاولتهم فى واحدة من تلك السهرات وقد اكثرت تلك الليلة من الشرب حتى انها فقدت القدرة على الوقوف ونقلها المرحوم بصعوبة الى بيتها ولعله تعلق بها منذئذ

يقول آخر، حقا لقد كانت جميله ورقيقة ولكنها كانت دائمة التردد على الشاطبى وكانت لها صداقات عديدة ورأيتها اكثر من مرة مع رجال غيره . .

يقول ثالث بهزء، الحب اعمى . .

ويقول آخر، بل هى قلّة العقل وعدم التبصر . .

ويتدخل رابع، انها لم تتجاوز العشرين من العمر بينما كان المرحوم قد تجاوز الخمسين سنة، ويضيف بخبث، ولكنه قوى البنية فحلا . .

يتدخل احدهم وكان قد وصل لتوّه وقدّم تعازيه لأبن المرحوم خافض الرأس متمتم بعبارات الترحم، لقد سمعت انه سجل الشقة باسمها واشترى لها سيارة وجعل لها حسابا فى البنك وربما أشياء اخرى . .

الرجل الاسود ذى الرأس المكّور والشعر المدبب والذى كان معه اثناء حادث الفندق يقول، لقد كان المرحوم اعمى فى علاقته بمايسه وكانت تسافر من وقت لوقت الى اوربا لشراء الملابس والروائح ولعله . . . . يمسك عن الكلام . .

بأسف ظاهر يتدخل ذلك الرجل ذى النظارة الطبية السميكة والذى كان المرحوم قد اتهمه بالعمالة والاندساس بين صفوف المعارضة، يقول، لا حول ولا قوة الا بالله، يا ناس اذكروا محاسن موتاكم، لقد كنتم معه فى استهتاره ونزقه وحماقاته وها انتم عليه فيما ليس لكم به شأن، لقد انتقل الى ربه وهناك حساب عادل . .

ينظرون اليه باستغراب، ويقول احدهم ارى اننا لسنا فى حاجة الى مواعضك يا سى محمود، يدير الرجل رأسه فى اتجاع آخر ويردد فى سره، شر البلية ما يضحك، يظهرون ما لا يبطنون، قادة وزعماء وساسة ومناضلون وهم فى حقيقة الامر زناقة سماسرة مرتشون ليس لهم ولاء ولا صدق ولا ذمة يستوى عندهم الكفر والايمان، يتمتم وهو قابض بشدة على تلك المسبحة الصغيرة وقد امسك عن الكلام او النقاش . .

لم يلتفت ابن المرحوم الى ما يدور من نقاش وهمس، فقد كان شارد البال مهموما، يمد يده الى كل آت ويحرك شفتيه بكلام غير مسموع يخالجه شعور بالنفور من هؤلاء القوم وبالخجل مما قد يكون مات به والده ولكن ما حيلته ؟ أهى كلها ثلاثة ايام للعزاء ويتفرق الجميع . .

وفى الليلة الثانية وكالعادة نفس المجموعة فيما عدا اولئك العمال الذين يعملون فى الفندق والكسّارة وقد تخلّف بعضهم فى العمل، يدور الحديث

فى السياسة، بعضهم يتهامسون والبعض الآخر يتبادلون الحديث المسموع، الغارة الامريكية على ليبيا وعدم نجاحها، واجتماع الدول الصناعية الكبرى فى طوكيو وقرار مقاطعة ليبيا باعتبارها دولة ارهابية، وشركات البترول الامريكية وكيف انها ستتوقف عن العمل وينهار الاقتصاد الليبى، وحادث المفاعل الذرى السوفييتى فى تشارنوبيل وكيف ان السوفييت لا يهتمون بمواطنيهم والسلام العالمى..

يقول احدهم، ان توقيت الغارة الامريكية لم يكن مناسبا ولو كانت الساعة الثانية نهارا بدلا من الثانية ليلا لكانت اكثر فعالية وكيف انه لا يفهم لماذا أمر الرئيس الامريكى ريغان بتلك الغارة ثم يتوقف قبل اسقاط القذافى، ويستمر فى الكلام بشماتة قائلا، هذه نتيجة السياسة الخرقاء الحمقاء، وكان اثناء الحديث يداعب سلسلة ذهبية تحيط معصم اليد اليسرى وكلما حركها لامست خاتما ذهبيا كبيرا كان يضعه فى اصبعه الوسطى ويرتدى قميصا ذى الوان زاهية وقد تخللت شعر رأسه الصغير شعيرات بيضاء لامعة يظهر انه كان يحاول علاجها بصبغ يتناسب مع لون الشعر..

ويتحدث رجل ثانى عن اجتماع الدول الصناعية فى طوكيو باعتبار ان قرار تلك الدول ضد ليبيا يعد انتصارا للحرية فى كل مكان وان الغارة العسكرية الامريكية ان لم تكن قد حققت غرضها فان المقاطعة الدولية كفيلة بذلك وان الشركات الامريكية اذا اوقفت اعمالها يسقط الحكم فى ليبيا وبرغم ان القذافى يحاول الالتصاق بموسكو وحلف وارسو الا ان السوفييت سوف يطالبون بتسديد ديونهم خصوصا الآن وبعد الحدث الذى كاد ان يدمر العالم وقد احدث خوفا وهلعا شديدين فى الدول الاوربية المجاورة ودون ان يحرك شعرة من رأس السيد غورباتشوف وسوف يكلفهم كثيرا، ذلك هو الانفجار الذى حدث فى المفاعل الذرى فى تشارنوبيل (يشير بيده الى الشرق)..

وكان الرجل ذى النظارات الطبية السميكة قد امسك تماما عن الحديث او المناقشة وجعل همه ينحصر فى تفحص وجوه القادمين والذاهبين بينما يشغل اصابع يده اليمنى فى دحرجة حبيبات المسبحة يمنه ويسره، ولفت انتباهه وجوم ابن المرحوم وعدم مشاركته فى أى كلام ماعدا حركة اليد اليمنى التى يمدها بشكل ميكانيكى لكل آت او ذاهب، ورآه فى اليوم الاول غير باك وان كان الحزن يطفح من عينيه فخيّل اليه ان قلب هذا الشاب اليافع الذى لم يتجاوز العشرين من عمره مترع بالاحزان حتى انه لا تبكيه الاحداث العظام وهو وان كانت ملامح وجهه شبيهة تماما بوجه والده الا انه لابد ان يكون على قدر كبير من الاتزان، كانت نظراته يائسة، ومرت الليلة الثانية يلفها جو حزين ألتقى فيها جمع من الناس لا هم لهم الا تقطيع ذمم عباد الله وكأنما العالم بمن فيه من ناس قد جعل مطية لألسنتهم، احس هذا الرجل ويدعى محمود وهو ينظر من خلال تلك النظارة الطبية السميكة انه غريب عن هؤلاء غربة سحيقة وربما فكر فيما يكون هؤلاء الناس واى عمل سياسى هذا الذى يدّعونه، وتصّور ان عينيه كانتا رمداء واذنيه كانتا صماء بحيث انه منذ زمن لم يسمع او يرى، دارت فى مخيلته اشياء كثيرة واحس كأن نارا تشتعل فى احشائه اذ انه مهما بلغ الخلاف فى الرأى لا يمكن للانسان ان يحوّل الجمال الى قبح وبشاعة، ولكن ما حيلته ؟ تنهد الرجل بصوت عال مما جعل بعض الرؤوس تميل اليه الا انه احجم عن الكلام، وجاءت الليلة الثالثة وتجمع القوم وخاضوا فى كل شئ عبثا ولقد حانت من الأبن إلتفاتة حيث كان يجلس فى الجانب الايسر من الصوان وبان عليه التحفز للمشاركة فى المناقشة او الحديث لأول مرة، وكالعادة كان النقاش يدور بين هؤلاء وهم جلوس على مقاعد متقابلة ومتحادية وينضمون الى بعضهم او يتفرقون كيف ما اتفق حيث تسمع الكراسى وهى تجر الى هنا او هناك، وكانت إلتفاتة الشاب الى جمع يتحلق حول ذلك المتخنفس الذى يضع السلسلة الذهبية حول معصم يده اليسرى ويظهر كل

ليلة مرتديا قميصا ملونا مختلفا عن سابقه، كان يتحدث عن التغيير فى ليبيا وكيف يجب التخلص من القذافى واعوانه ودور المعارضة الليبية فى الخارج وامكانيات تمويل صحفها وانشطتها وتوحيد فصائلها المختلفة، ولقد تخلى الشاب عن صمته المطبق فقال،

اى معارضة وما هو النضال واى عمل سياسى هذا وما هذا العبث والنفاق ؟ قال هذا بصوت عال جهورى لفت اليه انظار الحضور وربما يكون قلبه المتأسى قد احس بحنو وندم . .

سألوه وكأن طير الابابيل قد رمتهم بالحجارة . .

ماذا تقول ومنذ متى تتحدث فى السياسة أولا تعرف أبوك وقد كان احد اقطاب المعارضة وقد مات وهو يناضل بين صفوفها ؟

نظر الشاب بارتياب واشمئزاز وردد فى سره، يناضل فى صفوفها واين هذه الصفوف ؟ أليست فى الخمارات ومواخير الليل والكذب على عباد الله، ودون ان ينبس بحرف واحد سرح بنظره وكأنه يزن الكلمات ويحدد المواقف ويختار الوقت . .

بصوت واحد فى نغمات مختلفة، أتدرك خطورة الكلام الذى تفوهت به ؟ ينظرون اليه حيارى . .

الشاب يرد بكلام سريع ومختار كطلقات المدفع الرشاش، انى ادرك معنى كل كلمة قلتها واستغفر لوالدى ما ارتكب من اخطاء، وانا اعتقد انه ارتكب جريمة قد لا تغتفر فى حق وطنه واسرته، يتجه بنظره الى البيت الذى تقيم فيه والدته واخواته مضيفا، كان فى امكانه ان يبقى هذه الاسرة هناك (ينظر بعيدا) فى بلادها لتشارك فى حلو الامور ومرها اما ما تقولونه فاراه حمق وصغارة لا يقبل بهما العقل ولا المنطق ولا بديهيات الفهم السياسى . .

يحلقون فى وجوه بعضهم، ويقول احدهم، ما هذا الذى نسمع ؟ أنحن فى مأتم عبدالله ومع ابنه ام فى مكان آخر ؟

يقف احدهم منفعلا، أنك غر لا يفهم وما كان من الادب ان تجرح الناس بهذا الذى تقوله، ويشير بيده الى الآخرين ليدعوهم الى الانصراف، ويضيف، خسارة اسمك . . .

يستوقفه الشاب باشارة من يده ليقول، ان للكلام بقية فهاكم اياه،

ان من لا خير فيه لبلده لن يكون فيه خير لبلد آخر وها انتم هنا فى مصر شامتون فى بلادكم ومواطنيكم وكان هنا غيركم فى العهد الذى تتغنون به اناس عاشوا معزّزين مكرّمين وكانوا ضد بلادهم وعندما قامت الثورة عادوا الى هناك وكانوا عتات معركة شرسة ضد مصر وعروبة مصر بل ضد الوحدة العربية، اما عن اسمى فانى والله ما جعلته هكذا وقد فعل ذلك والدى رحمه الله وما انا إلا مواطن ليبى يحس بآلام بلاده ويسعد لسعادة مواطنيها ويشقى لشقائهم والمعارضة التى تتحدثون عنها او النضال اذا كان هناك احتياج لمعارضة فيجب ان تكون فى الداخل والنضال بين صفوف الكادحين وليس من الفنادق الفخمة .

يخرجون منتفضين وكأن كل واحد منهم قد مسّه عفريت، احدهم بتشنج، شيوعى مارق، خسارة تربية عبدالله فيه . .

لا يبقى فى الصوان الا محمود وقد دمعت عيناه فنزع تلك النظارة الطبية السميكة وجعل ينظفها بمنديل أبيض وآخرون يرتدون جلابيات بيضاء وهم عمال الفندق الذى يملكه والد الشاب، وبرغم ان تلاوة قرآنية لم تنته ومن آداب المسلمين ان لا يغادروا المكان قبل انتهاء تلاوة القرآن إلا انهم جميعا تركوا الصوان . .

ينظر محمود الى الشاب ثم ينهض بعد ان انتهت التلاوة ليقول له تمنيت ان يكون فى مستطاعى ان اشد على يدك يا بنى، باركك الله، ان هؤلاء لا

عمل لهم إلا النكاية فى بلادهم فقد كان كلامهم سيوفا تنغرس فى القلب ومطارق تنهال على الرأس . .

يتمتم الشاب، حمقى وجهلة يجعلون من الابيض اسود، والله سأئد بيدى ملامح كل السنوات الماضيات وأستغفر الله لأبى فقد عميت بصيرته . .

ينهض الرجال ذوى الجلابيات البيضاء يشدّون على يد ادريس معزّين بحرارة لا شك فى صدقها، ينصرف الجميع ويبقى الشاب وحيدا فى الصوان، تغرورق عيناه بالدموع لأول مرة فقد احس بوحشة المكان . .

وتمر الايام والليالى فى تتابعها الذى سنه القدير العليم دون توقف، وكان الشاب يعد نفسه للعودة الى بلاده فى اسرع وقت ممكن مع اسرته وما كان لشئ يمكن ان يبقيهم لولا الالتزامات التى عليه ان ينهيها جميعا، وما انفك يسأل حتى لا يبقى دينا على والده الذى مات فجأة دون ان يطلعهم على شئ . .

غادر محمود المكان يملأه الحنق والارتياب وقد توضحت امام عينيه الصورة القبيحة لأولئك النفر من الناس الذين يتاجرون بكل شئ، ذهب كعادته دائما ليجلس فى ذلك الجانب القصى من البار فى الفندق الذى ألفه وكان هذا ديدنه منذ فترة غير قصيرة، فهو لا يعمل عملا روتينيا اذ انه يعيش على دخل معقول ان لم نقل متواضع يأتيه من ايجار شقة وجاراج بينما يسكن فى شقة صغيرة يمتلكها ولأن اسرته صغيرة فانه لا يتكلف كثيرا من المصاريف وهو لا يدخن الا غليونا وهذا اقل وسائل التدخين تكلفة واقلها ضررا كما كان يقول، وان كان لا يعود الى شقته الا متأخرا كل ليلة فى الغالب حيث يبقى فى تلك الزاوية من البار من ظهيرة كل يوم تقريبا الى قرابة منتصف الليل، ويحرص كثيرا على قراءة صحف الصباح ولا

يستمع الا نادرا للراديو بينما يسهر ليلة واحدة من كل اسبوع فى نادى ليلى عرف عنه الهدوء وله فيه صداقات متنوعة . .

محمود ليس بالمعارض لنظام بلاده وبالتالى فهو لا يمارس اى نشاط مما يسمى سياسى وقد صار يتقزز حتى من مجرد ذكر كلمة سياسى او سياسة ولكنه فى نفس الوقت لا يميل الى تأييد تلك التجربة التى يرى انها جاءت سابقة لوقتها وان ايجابياتها ستنقلب الى سلبيات بفعل الممارسة غير الراشدة، وكان يقول ان الشعوب لا تساق بالعصى حتى الى الجنة، كما كان يتحدث كثيرا عن نضال الزعيم الصينى (ماتسي تونج) وما انجزه لبلاده من استقلال وتحرر ولكنه ضيع كل ذلك عندما فرض على شعبه ان يرتدى نوعا واحدا من اللباس وعندما اعلن الثورة الثقافية التى استغلت اسوأ استغلال وقد استخدمها الانتهازيون ضد الشرفاء والمناضلون الحقيقيون وعندما مات انقلب كل شئ ضده وقد حوكم وهو ميت فى شخص ارملته وما عرف وقتئذ بعصابة الاربعة، وهذا الشعب الصينى الآن يرتدى (البلوجينز) ويرقص فى الشوارع على انغام الموسيقى الغربية الصاخبة ويتزاحم على شراء البيبسى كولا كرد فعل على ما حدث فى تلك الحقبة . .

ومحمود هذا لا يؤمن بالنظم العسكرية لمجرد ان الانقلابات او الثورات عندما تحدث تلغى القوانين والدساتير وتعطل عمل القضاة، كان يفكر فى هذه الامور عندما جلس كعادته فى تلك الزاوية من بار الفندق وكأنما كان يريد ان يناقش فى سره ما كان يقوله اولئك الذين يسمون انفسهم معارضة، ، وفجأة فطن الى انه ما كان ليهتم بهذه الامور ولا كان يسمح لنفسه بان يناقش هؤلاء الناس، وبندم يتنهد قائلا، الله يرحم سى عبدالله، يتدارك، ان الامير من لا يعرفه الامير، يصفق بيديه طالبا كأسه ومن دون ان يسأله النادل يرد حاضر لأنه يعرف مشروب الحاج محمود، وهو فى كثير من الاحيان يعترض على كلمة (حاج) لأنه اولا ليس بحاج وثانيا لوجوده فى البار ولكن ربما كان السبب فى مناداته بكلمة حاج يرجع الى

كبر سنه وقد اعتاد بعض الناس ان يفعلوا ذلك مع كبار السن بصرف النظر عن كونهم من الحجاج ام لا، يأتى النادل النوبى الملامح والذى يرتدى جلبابا طويلا ويضع على رأسه قبعة لا يعرف لونها محمود لأنها محاطة دائما بعمامة او هى ملفوفة بقطعة قماش ابيض، يقول نفضل يا بيه عندما يضع الكأس على الطاولة، ينظر اليه محمود ويقول فى سره، لا قيمة للقرش الا فى هذه البلاد، يسائل نفسه، هل يمشى مع هذه الفئة او تلك رغم انه بعيدا عن الكل ؟ ويتفكر انه لم يزر بلده منذ اكثر من عشر سنوات وان كانت رغبة الزيارة تراوده بين وقت وآخر، يستبعد الفكرة اذ تهفو نفسه الى الكأس الذى وضع للتو امامه، يجرع الكأس، ويحس انه فى حاجة لعدة كؤوس فى وقت متقارب اذ كان قد تخلف عن الجلسة فى هذا المكان لثلاثة ايام متوالية هى ايام مأتم سى عبدالله . .

يسأله النادل، فين انت يا محمود بيه اختفيت منذ ايام وقد وصل ساكن جديد وسأل عنك ويقول انه من نفس المدينة وانه يحمل انباء هامة ويوّد رؤيتك ؟

محمود باستغراب، يسأل عنى انا !؟ ما اسمه وفى اى حجرة يقيم ؟

النادل، ما اعرفه انه يقيم فى الفندق وقد سأل عنك، وفجأة تحين من النادل نظرة فيراه، ينادى بصوت عال، يا افندى محمود بيه هنا، لكن الرجل لا يسمعه ويتجه الى باب الفندق، يلحق به، يعودان معا فيقف محمود ليرحب بالقادم الجديد، يتعارفا فيدخل اللقاء بعض البهجة والانشراح على نفس محمود، فها هو يلتقى بزائر جديد لابد انه من نوع آخر من الناس، يقول، هل سألت عنى ثم يتدارك فيدعوه الى الجلوس، تفضل . .

يجلس الرجل ويدعى سعيد وقد ظهرت عليه حيرة مفاجئة وكأنه يحمل ما لا يود قوله . .

النادل يقف منتظرا . .

محمود تفضل، ماذا تشرب ؟

النادل يسأل، بيره مثلا، مشروب بارد، الضيف كان مترددا . .

يقول، مشروب بارد، النادل، بيره مثلا، يهز رأسه بالايجاب . .

محمود، من اين وصلت ومتى ؟

سعيد، جئت من بنغازى عن طريق اثينا اذ ان زوجتى ترغب فى زيارة اهلها بالاسكندرية . .

محمود، وقد توّسعت حذقا عينيه، وهل يسمحون بالزيارة ؟

سعيد، بطبيعة الحال وكل ما تحتاجه هو ابلاغ جهات الاختصاص بسبب الزيارة . .

محمود بقلق وحذر، ماذا حدث وكيف هى معنويات الناس وما مقدار الخسائر بعد العدوان الامريكى على البلاد ؟

سعيد، لقد كان عدوانا غادرا استهدف المدنيين قبل غيرهم وان كانت الخسائر ليست عالية لكن الناس اصابهم الفزع فى بداية الامر ولكن الموقف الآن جيد والمعنويات عالية وكما تعلم فان الرأى العام سواء أكان عربيا او دوليا قد كان معنا . .

محمود، لا اخفيك ان الرأى العام سواء أكان عربيا او عالميا لا يفيد ما لم تكن الجبهة الداخلية متماسكة . .

سعيد، وهى كذلك ونحن لا نتوقع ان هناك من سيحارب نيابة عنا ولكن الرأى العام مهم فى العمل الدبلوماسى والمواقف السياسية . .

محمود، حمدا لله على ذلك، يأتى النادل، يضع الزجاجة على الطاولة فيلمسها محمود للتأكد من انها باردة ثم يقول فى صحتك، يتوقف برهة

ريثما يتناول الكأس ثم يستأنف، علمت انك سألت عنى ولكننى تغيبت الايام الماضية بسبب وفاة المرحوم عبدالله بن مفتاح . .

سعيد بتلقائية، رحمه الله، سألت عنك فعلا فقد ابلغنى قريبك الحاج عبدالهادى ان والدتك مريضة جدا وقد نقلت منذ ايام الى المستشفى . .

محمود دون انزعاج، لقد بلغت من العمر تسعون عاما وكما يقال اقربنا الى الموت المريض وكبير السن . .

سعيد ولكن . . . .

محمود مقاطعا، اعرف ماذا تريد ان تقول فشكرا اولا وسوف احاول الاتصال هاتفيا غدا او بعد غد والاعمار بيد الله . .

يستأذن سعيد بالاتصراف، يغادر المكان . .

يطلب محمود كأسا آخر ويطرق برأسه فتظهر امامه تلك المقبرة التى تقع شمال شرق بنغازى وتراءت لعينيه اشجار السنوبر الباصقة والقبور المصفوفة، وراى امه تتوكأ على ذلك العكاز القديم وشعرها الاشيب وتلكم العينين الجاحضتين وجلد الوجه الذى يظهر العظام وكأنه شّد عليها شدا وظهرها المقوّس وصوتها الجهورى العالى الذى لم تؤثر فيه السنون وهى مازالت تخرج الكلمات واضحة برغم تساقط اسنانها جميعا الا اثنتين فى مقدمة الفم، تخيّل جنازتها التى لا يسير معها الا ثمانية او عشرة من الناس، وسمع همسات الجيران، ها قد ماتت امه بعد ان مات ابوه ولم يكّلف نفسه شيئا ولا حتى نظرة اخيرة، ترقرقت الدموع فى عينيه وهمس، سامحينى يا والدتى، وما فطن الا والنادل يضع الكأس على الطاولة فيحدث صوتا، لم يرفع رأسه ولا نظر الى النادل، ثم تمتم، يعافيها الله او يرحمها فقد كانت قاسية لاذعة اللسان متقلّبة المزاج، وهكذا فقد عاشت حياتها وحيدة وهو لا يذكر منها الا اللطم والتقريع برغم انه ما عاش معها الا سنوات قليلة وكانت قد افترقت عن ابيه وعمره ثمانية سنوات ولم تنجب غيره،

ويقولون ان من تعب فى اول حياته ارتاح فى آخرها ولكنه لا يتصورها ألا تعبة فى اول حياتها وفى آخرها، انّبه ضميره اذ لو كان مقيما فى البلاد لكان على الاقل وقف بجنبها الى ان تموت، يتنهد، ويكرر الموت علينا حق ولا هروب منه ولا يعلم إلا الله اين تكون تربه الانسان، شرد بذهنه بعيدا وقد انقبض قلبه ولعله احس لأول مرة بثقل ووطأة الغربة، امواج الشك والحيرة تتلاطم فى نفسه، فقد كان مكروبا وحانقا ولكن علم ؟ سأل نفسه، يقول، لا اعرف كيف يصورون ساعة المغيب بانها جميلة بينما هى الاحتضار نفسه ؟ ابتسم ابتسامة غير ذات معنى وردد ترى ماذا يخبئ القدر لنا ؟ تناول الكأس ليجرع منه جرعة طويلة وبذلك التساءل كان كأنه يقرأ الغيب والقدر المحتوم فقد سمع عن وفاة امه فى المستشفى ثم بعد اسبوع واحد صدمت سيارة مارقة بسرعة مذهلة ابنه الوحيد ففارق الحياة فورا، كان يقود تلك السيارة سائح عربى سكران وفى غمرة احزانه قرر ن يقلع عن عادة شرب الخمر وترك مكانه المفضل فى زاوية بار الفندق، فلربما كان هذا الذى حدث عقابا له من ربه، يسائل نفسه، أليس الله غفور رحيم ؟ ثم يرد، ولكنه شديد العقاب، يفكّر فى الوطن ولكن ما فائدة العودة الآن ؟ والدته وقد توفيت ولم يحضر وفاتها، وابنه وقد قتل ولم يبق له إلا امرأة شبه عاجزة حتى عن اعداد اكلة النهار، يهيم على وجهه وهو لا يعرف لماذا وقعت عليه الكوارث والهموم دفعة واحدة . .

(6)

بينما كان خالد قد فرغ لتوه من مطالعة صحف الصباح وقد هدأ ذلك البركان الذى اجتاحه فوارا ثائرا عندما تعرضت بلاده لذلك الغزو البربرى الذى قامت به الولايات المتحدة الامريكية بقوتها الغاشمة، هدأ البركان لا لأن الخطر قد زال ولا لأن القلوب المتحجرة قد بعث فيها الحب من جديد اذ ما زادها العدوان إلا حقدا وصلفا وتطلعا الى عودة عهد مضى بكل ما فيه ذلك الذى كان يغرى المغامرين ويلبى مطالب النصابين وتمخر اصابع الاستعمار فى جسمه دون تبرّم ولا شكوى، ولكن الهدو اتى من احساسه بان الوطن بخير اذ ربما عرف الليبيون وبعد فترة طويلة من عدم المبالاة بان الكرامة قبل الخبز، فرغ من مطالعة الصحف وما كاد يمد يده لتناول كتاب كان قد قرأه اكثر من مرة وهو يلجأ اليه كلما تفكر فى احداث التاريخ وتطور نشوء الامم ونضال الشعوب ذلك هو كتاب (لمحات من تاريخ العالم لرجل الهند الكبير جواهر لال نهرو) حتى كان الهاتف يناديه برنات متواصلة وقد تمهل قليلا قبل ان ينهض ليرد على الهاتف كى يقطع حبل ذلك الرنين المتواصل العنيد، وقد نظر الى ساعة معصمه علّه يعرف من عساه يكون المنادى وقد كان الوقت مبكرا ؟

تناول سماعة الهاتف واذا بالمفاجأة . .

ارجو الا اكون قد ازعجتك او إن مكالمتى فى غير وقتها اذ ربما تكون مازلت نائما وان كان عهدى بك انك مقلّ فى النوم، كان الصوت انثوى

رخيم احس بانه حنون وقد ذكرت ان عهدها به أنه مقلّ فى النوم ! اذن هى تعرفه . .

رد بلهفة وتطلّع، ليس هناك ما يزعج وقد كنت اقرأ صحف الصباح واتهيأ لتناول وجبتى من كتاب احب الرجوع اليه عندما اجد وقتا مناسبا للقراءة . .

هتفت اذا كانت ذاكرتى قوية فقد عهدتك من قراء التاريخ، والتاريخ العربى بشكل خاص، وتوقفت قليلا قبل ان تواصل، وكذلك فانت تهتم بالتاريخ رغم تخصصك العلمى . .

كان ينصت باهتمام بالغ محاولا ترجمة ترنمات الصوت فنحن كثيرا ما نعرف الناس باصواتهم وكان يعتقد انه ممن يميزون الاصوات على نحو دقيق ولكنه هذه المرة احس بان الصوت غير مألوف لأذنيه، وكأنها عرفت بانه يحاول ذلك، فاردفت قائلة، لا فائدة من محاولة تذكّر ترنمات الصوت فعهدك به بعيد ولكى اوفر على اذنيك مهمة البحث اذكّرك باننى فوزيه . .

فوزيه ! يا الهى، وسرى فى جسمه تيار قوى اربكه برهة وقفز بذاكرته الى مكان بعيد وايام خوالى، ورد مرتبكا، اهلا وسهلا فرصة سعيدة ان اسمع صوتك . .

اجابت بنبرة تدل على الاحتجاج، لا نراك الا اثناء الشدائد، اترانا نتمنى الكثير من الاحداث لا قدر الله لنراك ؟ وما اجمل ان تكون غاضبا ومنزعجا . .

يضحك، الامر ليس كذلك ولكن مشاغل الحياة وظروف العمل والمشاكل العائلية . .

قالت بتودد، والغرق فى القراءة واكداس الكتب . .

قال، فى ذلك بعض المتعة يا عزيزتى (اول مرة يخاطبها بكلمة عزيزتى منذ قدر لهما ان يفترقا) . .

فوزيه وقد دغدغت احساساتها كلمة عزيزتى، احس بان مزاجك رائق وهكذا فان مكالمتى قد تكون فى الوقت المناسب ؟

خالد، معك ولك كل وقت مناسب ورائع وكان بودى ان . . . .

فوزيه مقاطعة، لو لم اتصل فما اظن انك يمكن ان تتصل ؟

خالد مترددا، الامور اختلفت كثيرا ولكل شئ نهاية شئنا ام ابينا . .

فوزيه باحتجاج، هناك ذكريات واشياء تظل عالقة بذاكرة الانسان وربما امكن القول انها قطعة من القلب تنبض فى كل وقت لكننا نحاول تجاهلها فى بعض الاحيان لظروفنا الاجتماعية . .

خالد بحسرة، نعم هكذا هو الحال ونواميس الحياة تفرض هذا الانتظام البديع الغريب فى نفس الوقت، بديع ان تسير الامور فى انتظام وتوافق كتعاقب الايام والليالى ودوران الكواكب والنجوم والافلاك فى ذلك الفضاء اللامتناهى، وغريب ان يجد الانسان نفسه قد اسلم مقاليده لتيار ينأ به بعيدا عن رغباته وامانيه . .

فوزيه، لا تتفلسف كثيرا يا خالد فانا اعرف جيدا ولا تحاول ان تفرض نوعا من الهروب وما اخالك إلا مثلى تماما ونحن امثال كثيرين فى هذا العالم لكننا نهرب من مواجهة الحقيقة، تتوقف برهة، فكر فى ان ينهى المكالمة ولكن سماعة الهاتف تسمرت على اذنه اذ ربما شعر بانها قد تغتاض او تعتبر هذا التصرف اهانة وما قصد يوما اهانتها وان كان قد قرر ان يقطع علاقة يراها غير مشروعة بعد كل الذى حدث . .

تواصل هى الكلام، تصور اننى كنت اقرأ شعرا وانا احب الشعر كما تعرف وفجأة وجدت نفسى ادير رقم الهاتف لأتحدث معك . .

خالد بدهاء، أتسألينني عن بيت شعر استعصى فهمه ام ماذا ؟

فوزيه، كلا وانما لأقرأه لك . .

خالد مقاطعا، اظن انه من القبانيات ؟

فوزيه، كلا وان كنت احب شعر نزار لكننى ارى هذا الذى اقرأه ابلغ واجمل

خالد، مستسلما، هاتى يا سيدتى . .

فوزيه، مترددة، هل ترى من المناسب ان اقرأه الآن ؟

خالد، ألم تقولى ذلك، ثم لماذا لا ؟

فوزيه، قبل ان اتحدث معك كنت مصممه على ان اقرؤه لك وبعد الحديث شعرت بنوع من التردد . .

خالد، ألم اقل لك ان الظروف تفرض قيودا لا نستطيع تجاوزها فى الغالب ؟

فوزيه، هذا حقيقى ولعل اسلوب تربيتنا كان خطأ فنحن نعيش بين ثلاث كلمات منذ الولادة الى نهاية العمر . .

خالد باستحسان، لست المتفلسف الآن ؟

فوزيه، ابدا المسألة ليست فلسفة وانما هى حقيقة بديهية وكلنا هكذا ألا تذكر ان اهلك عندما كنت طفلا يقولون لك (عيب) كلما حاولت ان تأتى باى عمل يرونه خارج على التقاليد ثم عندما جاوزت مرحلة الطفولة وحاولت ممارسة بعض رغباتك يقولون لك (حرام) ثم عندما تكبر وتحاول تحمل مسؤولياتك يقولون لك (ممنوع) أليست هذه الكلمات الثلاث تمنعنا من كل شئ (عيب، حرام، ممنوع) عيب فى المجتمع، وحرام من الله، وممنوع من الحكومة، تضحك . .

خالد بحماس شديد، برغم ذلك كنا نختلس من العيب قليله ونتعلل بشأن الحرام ونهرب من الممنوع . .

فوزيه، أولا يكون ذلك ممكنا الآن ؟

خالد، ربما ولكن لنسمع بيت شعر . .

فوزيه، على شرط ان تلتزم بموعد الزيارة فى وقت قريب . .

خالد مفكرا، انى والله لأحن لهذا الهاتف الذى يهزّنى من الداخل دائما ولكن الظروف . .

فوزيه متلعثمة، كأنك تقرأ بيت الشعر ؟

خالد يضحك، الله يعلم بالغيب ولكن القلب دليل . .

فوزيه تقرأ بترنم بديع (مازال الحب كما كانا   نيرانا توقد نيرانا

كم يوم مر ونحن كما   يعرفنا الحب ويهوانا)

تتوقف لتسأل، هل يروقك هذا الشعر ؟

خالد، كمّلى بالله . .

فوزيه، تسمع جرس الباب فتستأذن قائلة، اعتقد ان هناك زوار ولكن لا تنسى الموعد . .

خالد يضحك، ها قد بدأ الممنوع . .

الى اللقاء . .

الى اللقاء . .

وضع خالد سماعة الهاتف فى مكانها ولم ينهض من المقعد، بدأ حائرا شاردا متفكرا، انها بداية جديدة، يتوقف، يعود به تفكيرة الى الجمعة الماضية وقد لاحظ لأول مرة اذ ربما لم يكن يهتم بذلك ان ابنه قد اشترى

لنفسه آلة حلاقة وان شاربيه قد صار بيهما شعيرات، كذلك تلك الابنة الصغيرة التى كان يدغدغها تحت ابطها احس اليوم عندما لامست يداه صدرها بان انوثتها بدأت تنضج فاقلع عن تلك المداعبة ولكنه احس بشئ لعله ثقل المسؤولية ؟ مسؤولية الاهتمام بتعليم وتربية هؤلاء الاطفال ولقد كان طليقا لا يقف عند حدود ولا عاقته مسؤولية اجتماعية فيما سبق عن الفرح والمرح، ويفخر بانه تنشق عبير وردة من كل حديقة فى هذا العالم وكان يقول اننا نعيش مرة واحدة، يحب الموسيقى الجامحة وحياة الليل ويردد (ما اطال النوم عمرا ولا قصّر فى الاعمار طول السهر) كان لا يأبه بوالدته تلك العجوز التى بلغت من العمر عتيا وما كانت تغفو الا اذا اطمأنت على عودته الى البيت، واذا كان مسافرا فهى توصيه قبل السفر ان يداوم على الاتصال بها اينما حلّ ويذكر عينيها ملأى بالدموع كلما عاد من سفرة، سبحانك مغير الاحوال. .

يعود الى كتابه علّه يقطع شريط التفكير، يقرأ. .

فى اوائل سنة 1920 م شكل الامير فيصل ابن الملك حسين حكومة عربية فى سوريا بمساعدة الانجليز وجمع مجلس وطنى سورى واقر دستورا ديموقراطيا لسوريا الموحّدة ولكن هذه الحكومة لم تستمر الا لمدة اشهر فقط، اذ ان فرنسا التى كانت قد انتدبتها عصبة الامم على سوريا جاءت فى صيف 1920م وطردت فيصلا من البلاد واحتلتها بالقوة ولم يكن يبلغ عدد سكانها باجمعها اكثر من ثلاثة ملايين نسمة ومع ذلك فقد اثبتوا انهم شوكة قاسية فى حلق الفرنسيين لأنهم سواء كانوا مسلمين او مسيحيين قد صمموا على نيل الاستقلال ورفضوا الخضوع لسيطرة دولة اجنبية وانتشرت الاضطرابات وكثرت حوادث العصيان المدنى، واضطر الفرنسيون لطلب جيش كبير ثم حاولت الحكومة الفرنسية اتباع السياسة الاستعمارية القديمة لأضعاف القومية العربية فلجأت الى تقسيم البلاد الى دويلات صغيرة واظهرت الاهتمام الزائد بالخلافات الدينية والاقليات، انها سياسة قصدوا

بها ومنها تفريق صفوف الشعب، او باختصار طبقوا سياسة (فرق تسد) وهكذا قسّموا سوريا على صغر مساحتها الى خمس دويلات، واحدة على الساحل الغربى وسميت لبنان ومعظم سكانها من المسيحيين المارونيين الذين لاقوا من الفرنسيين امتيازا خاصا ليكسبوهم الى جانبهم ضد العرب السوريين، واخرى خلقوها فى شمال لبنان يسكنها مسلمون علويون، والى الشمال من هذه دويلة سميت الاسكندرونه، وبهذا تكون سوريا قد فقدت معظم مناطقها الخصبة وانقطت عن البحر الذى عاشت عليه آلاف السنين كانت فيها احدى دوله الكبرى وتركت الآن على طرف الصحراء القاحلة، ولم يكتف الفرنسيون بذلك بل اقتطعوا من سوريا ايضا جبل الدروز، لم يقبل السوريون بهذه التقسيمات منذ البداية فقاموا بكفاح مرير ومظاهرات صاخبة اشتركت فيها النساء، وحاول الفرنسيون اخضاعهم بالقوة وزادوا على ذلك بان اخذوا يخلقون مشاكل طائفية ودينية، فعم القلق، وانتشرت الفوضى، تأزمت الامور ووصلت الى حد الانفجار خصوصا بين اهالى الجبل الدروز فقد دعى الحاكم الفرنسى زعماء الدروز الى وليمة، ولما وصلوا القى القبض عليهم واحتفظ بهم كرهائن، حدث ذلك فى صيف 1925م وما كاد الاهالى يعرفون هذا الخبر حتى فجروا ثورة عارمة فى جبل الدروز ثم انتشرت الثورة فى جميع انحاء البلاد واصبحت حركة عامة تسعى الى حرية سوريا ووحدتها، كانت هذه الثورة حدثا فريدا فى نوعه فسوريا الصغيرة جدا تقف فى وجه فرنسا التى كانت تعتبر اكبر قوة عسكرية فى العالم فى ذلك الوقت. .

ويستمر فى قراءةكتاب التاريخ هذا القيّم مستمتعا، فمر بعد سوريا على فلسطين وكيف ناضل العرب الفلسطينيون ضد اليهود والصهيونية وقوة بريطانيا الدولة المنتدبة وكيف انهم كانوا يفضلّون الموت على اعواد المشانق دون التفريط فى حقوقهم الوطنية والقومية، وعن شرقى الاردن والجزيرة العربية والعراق ومصر وليبيا وغير هذه البلاد العربية التى رفضت جميعها

الاستعمار والسيطرة الاجنبية وكانت تقاتل ليل نهار من اجل الوحدة والاستقلال، ويتساءل، ترى ما هو الفرق بين الامس واليوم ؟ بين ما ذكره نهرو فى ذلك الوقت عن العرب والاسلام والنضال الوطنى والقومى ودور الاستعمار الذى اسماه نهرو نمرا يؤتمن على خراف، الاستعمار ثم الانتداب الفرنسى البريطانى ونظرية فرق تسد !؟

ولقد اكد التاريخ ان المال مفسد للناس والاوطان ومنفذ للاستعمار والسيطرة ما لم يحميه عقل منفتح وفكر نير وعقيدة راسخة لا تتعصب ولا تهمل، تأخذ من الماضى ما يخدم الحاضر ولا تفرّط فى الحاضر من اجل المستقبل المجهول، واحساس نابع من الذات يجعل الارجل تغوص فى تراب الوطن فلا تفرط فى ذرة واحدة منه . .

ترى هل ينطبق هذا على حالنا الآن حاكمين ومحكومين مؤيدين ومعارضين ؟ سؤال ليس فى حاجة الى كثير من العناء والتفكير، لأنه يرى فى الوقت الذى يكتب فيه هذه السطور أن رئيس وزراء اسرائيل يزور دولة عربية فى طرف المغرب الغربى هى المغرب، يزورها رسميا بدعوة من مليكها وبعد ان يلتقيا يصدران بيانا مشتركا فى كل من المغرب واسرائيل وكأنما الامر يتعلق بدولة صديقة ودون ان يتحرك اى شئ فى الوطن العربى او ان يتظاهر او يصرخ او يبكى اى مواطن عربى !! رحم الله نهرو فقد عاش فى زمن العز وكرامة الانسان، حيث روى لنا جزءا من ذلك التاريخ ومن اولئك العرب الذين كانوا كرماء اشراف . . . .

(7)

لم يكن محمود ليهتم بشئ فى هذه الدنيا بعد ما حدث له، غير انه يتساءل بينه وبين نفسه، أيكون العقاب قد حل به دون غيره لأنه دأب على تناول الخمر او لأن لعنة الوالدين قد اصابته فكان القصاص ؟ ثم لماذا يعاقبه الله بهذه السرعة، صحيح انه يمهل ولا يهمل ولكنه لم يمهله ولا حتى جاءت الاحداث فى شكل انذارات كى يستيقظ لنفسه ويتوب، ثم ان والده مات منذ كان صغيرا ووالدته ماتت اخيرا واذا كانت قد غضبت عليه فانها لا تعلم حالته النفسيه ولماذا رمى بنفسه فى المغترب ؟ ولكن الله يعلم ؟!

كان يحلّق فى ظلام تلك الحجرة الصغيرة منطرحا على فراش قديم قرب زوجته التى لم تعد تتكلم اطلاقا منذ قتل ابنها الوحيد وكأنها اصبحت صماء بكماء فى لحظة واحدة، ويتساءل دون ان يعثر فى ذهنه المشتت على اجابة مفيدة، وما اتعس الغريب عندما يصاب بالكوارث وتضيق به الدنيا، ترى أما كان اجدى له ان يكون بين ناسه هناك ولا يقول بين اهله لأنه لم يبق له احد من اهل، يتذكر انه كان يجلس عند الصباح على حافة ناصية الشارع وما يكاد يمر بعض من وقت حتى ينظم اليه الحاج مسعود والحاج طاهر والحاج محمد ويمر الوقت سريعا غير ممل الى ان يحلّ وقت الغذاء وصلاة الظهر، كانوا يتحدثون فى كل شئ، من احوال المنطقة ونظافة الشارع الى الزواج والطلاق والمواليد الى الدول والقارات والعالم كله، والحرب التقليدية والذرية، الرأسمالية والاشتراكية واسعار النفط والمواد الخام ونشرة

اذاعة لندن وبرامج التلفزيون الليبى المملة وآخر انواع اشرطة الفيديو التى اصبحت تجارة رابحة وصار كل بيت لا يخلو من جهاز فيديو ولو كان هناك ما يشاهد فى برامج التلفزيون الليبى لما احتاج احد الى الفيديو الذى لابد ان تكون اضراره اكثر من فوائده خصوصا بالنسبة للشباب بسبب عدم وجود رقابة على الاشرطة التى تباع فى كل مكان، لقد كانت الحياة هادئة مستقرة، يجلس فى الصباح على الناصية ثم يعود الى البيت للغذاء ثم ينام ساعة او ساعتين ويذهب الى مزرعته فى الهوارى بعد العصر ثم يعود بالخضار اللازم للبيت، ومن العادة ان يلتقى اصدقاء السهرة فى مكان غير بعيد من البيت حيث يتحلق الجمع حول طاولة خشبية قديمة عليها عدد من الكؤوس وخمر صنع محليا وشواء اللحم الوطنى، ولا ينفض اللقاء عادة الا قرب منتصف الليل حيث يعود الجميع الى بيوتهم، والبعض الآخر لهم ايضا نوع آخر من اللقاءات وهى الاحسن بالتاكيد ولكن (للناس فيما يعشقون مذاهب) هذا النوع الاخر من الناس ايضا يقضون اغلب اوقاتهم بعد فترة الغذاء فى المساجد ولا يعودون الى البيوت الا بعد صلاة العشاء، هكذا يتذكّر فهو لا يفترق عن صحابه فى مجلس ناصية الشارع الا وقت الغذاء، ولكن الحياة اختلفت وكأن كل شئ قد انتهى والظلمة اطبقت، ولكن ماذا بقى له فهذه زوجته مثل تمثال خشبى محترق تهدم، وهذه حياته فارغة من كل شئ وحتى ذلك الكأس الذى كان يلهيه بعض الشئ ونشوته التى تجعل الاسنان يحلّق فى عالم من صنع افكاره قد يكون سعيدا وان لم يكن حقيقيا، قد تركه . .

وتمر الايام والليالى متثاقلة فارغة، وقد حاول ان يجد امرأة تخدم زوجته اذ انه كثيرا ما يهيم على وجهه دونما هدف ولا غاية النهار كله ولابد لهذه المرأة العمياء البكماء المحطّمة من رعاية الى ان يتفكرها خالق الكون، وقد اطمأن باله عندما وجد عجوزا قبلت بان ترعى زوجته ولكنها لم تبق الا اسبوعين وتركت الخدمة لأنها كما قالت لا تحتمل الجلوس مع جثة

هامدة ليس فيها الا عينان غائرتان مخيفتان، وهكذا فقد جعل همّه ينحصر فى اعداد شئ من الاكل والشرب، كان يضع امامها قنينة ماء ورغيف خبز دون ان تنبس بكلمة او تلقى نظرة، وخيّل اليه انها ستموت هى الاخرى قريبا لا محالة، وانه لابد ان يجّن فقد تهدم كل شئ فى ايام معدودات وهذه الدنيا وقد ادبرت، يزور قبر ابنه وما كان يهتم بما حدث لذلك السائق الطائش الذى قتله، اتراه يسكر ويعربد ويقود تلك السيارة بنفس الطيش ؟ اذا كان قد دفع مبلغ ما، ولا شك ان المال لا يعوزه وان احدا لن يسأل عن هذا الغريب الذى قتل ابنه وتاه على وجهه فى الارض دون ادراك، يتمشى بين القبور ويسائل نفسه، أيكون كل هؤلاء الذين ينامون تحت التراب قد اصيبوا بنكبات ورزايا أدت بهم الى هذا المكان ؟ أيكون هناك اتقياء صالحون يرقدون هنا مطمئنين وآخرين مثله ؟ وما الفرق بين هذا وذاك فى هذه الرقدة ؟ وكم من الايام او الشهور بقى له حتى يكون بين هؤلاء تحت التراب عظاما نخرة ؟ ينظر الى السماء طالبا الرحمة من خالق الكون، يقرأ الفاتحة على قبر ابنه ويعود ادراجه، ولكن الى اين ؟

كان يتوكأ على عصاة وقد احدودب ظهره وتحجّرت نظراته واصبح وجهه كالحا مبتئسا يرى الدنيا بمنظار اسود وودّ لو يهوى بتلك العصاة على رأس كل انسان يقابله فى الطريق الذى يسير فيه بلا هدف ولا غاية، وقد اصبحت تلك الشقة وكأنها الكرة الارضية ينطلق منها صباحا فيدور النهار كله ليجد نفسه قد عاد اليها فى المساء وهكذا دواليك، كان يدخل ليلقى نظرة عجلى على تلك المخلوقة التى تجلس القرفصاء فوق قطعة فراء قديمة كأنها مومياء ثم يتحوّل عنها الى حيث ينام تاركا عصاه التى يتوكأ عليها الى جانبه لينطلق فى الصباح قابضا بيمناه على تلك العصاة، وفى ذات عودة القى بنظره ووقف مذهولا فقد انكفأت تلك المومياء على وجهها دون حراك، هزّها بعنف ولكن لا حياة لمن تنادى، عضّ على شفته السفلى اليابسة وقبض بيده على العصاة قائلا، لك الرحمة فقد ارحت واسترحت،

ولم يتجه الى مرقده تلك الليلة ولكن الى البار وان كان هذه المرة يمشى على ثلاثة وربما سيخرج ماشيا على اربعة، كان منظره يؤذى العين وصوته اجش وقد طرق الطاولة بعصاه بدل ان يصفق بيديه كما كان يفعل وكأنه اراد بذلك ان يحطم التقاليد ولم ينزوى فى ذلك الركن القصى كما كان يفعل ولكنه جلس فى الوسط وربما احس بانه بذلك يتحدى العالم، كان يطرق الطاولة بعصاه وكان الطرق عاليا فهروّل اليه النادل متفحصا بعينين جاحضتين وفاه فاغر ووجه يتطاير منه الشرر مستغربا طريقة الطرق وهيئة الطارق، ولم يكن قد عرف محمود بيه، هكذا كان يناديه ايام زمان، وان كان لاجئا مغتربا ولكنه كان مؤدبا فى طلبه يهتم بمظهره غاضا الطرف عن الآخرين منتحيا طرف قصى، النادل يتفحصه، ويسأله، افندم ؟

محمود، ألم تعرفنى ؟

النادل، لا يا فندم، وكيف دخلت الى هنا، يشير باصبعة الى أركان البار . .

محمود، هكذا لقد نبذنى الوطن فعشت الغربة بكل ما فيها من مآسى والآم، وقتل ابنى فعانيت الحزن والقنوط وتهت على وجهى فى الارض، وماتت امى وهى لم تحظ بنظرة منى نظرة وداع قبل ان تغادر هذه الدنيا وهى لا تدرى ما اذا كنت على قيد الحياة ام لا، وزادت غربتى وضياعى، ثم فقدت زوجتى التى كانت صامتة كالمومياء اصابها صم وبكم منذ قتل ابننا الوحيد وما رأيتها إلا منكفئة على وجهها كجدع شجرة هرم مما حفر فى قلبى جرحا نازفا وفى ذهنى عويلا لا يهدأ وفى عقلى ضياعا لا نهاية له، وها انت ايضا لا تعرفنى ؟! كان يتمتم ولم يتبين النادل منه شيئا فقال بصوت عال، ماذا تريد يا رجل انت، انه بار وليس مكانا للدراويش . .

ضغط محمود باصابع يمناه على عصاه التى بقيت رفيقه الوحيد ورفع رأسه قليلا ليقول، انا محمود . .

يتساءل النادل، ومن محمود ده ؟

محمود، لا بأس، وصار يطرق الارض بعصاه، محمود الذى كان هنا، محمود الذى فقد ابنه وامه وزوجته، وفقد الوعى، يتكدس على ارض البار فاقدا الوعى، يتنادى بقية السفرجيه وكل منهم يردد، لا حول ولا قوة الا بالله، ما الذى اتى بهذا المخلوق الى هنا يتهامسون، ما العمل ؟ أنبلغ المباحث ام الشرطة او المستشفى او المدير ؟

يتنبه الجلوس فى المكان الى تجمع السفرجيه والرجل المنطرح على الارض، فيسأل احدهم، ماذا حدث ؟

يرد احد السفرجيه، العلم عند الله يا بيه !

يستفيق محمود فيقول، انما عند الله وعندى، يساعدونه على النهوض وينظرون بحذر وتأفف، وبعد قليل يسألونه ماذا تريد، انت يجب ان تنصرف . .

محمود، الى اين ؟ لم يبق لى بلد ولا مكان ولا أهل، لقد كان لى بلد وأهل ومكان، كنت اجلس فى تلك الزاوية واتناول كأسى كبقية الناس ثم اعود الى زوجتى وابنى . .

يداعبه احدهم، لا دا انت كويس، قوم روّح . .

ينظر اليه محمود بعينين غائرتين دامعتين متسائلا، اروّح ؟ لقد رفضت ذلك عندما كان لى بلد واهل، طردت نفسى من هناك وها انتم تطردوننى من هنا !! يشير باصبعه السبابة من اليد اليسرى بينما ماتزال اليمنى تقبض على العصاة، يطلب كأسا فيقولون ليس لدينا ما نقدمه لك، قوم روّح يا عم الله يخليك . .

يعيد الطلب، فيقول النادل، وهل لديك ثمنه ؟

فيقول ما املك فى هذه الدنيا غير عصاتى هذه وبضعة جنيهات تكفى لعدد من الكؤوس وها انتم ترون ان صحتى لا تحتمل اكثر من كأس او اثنين . .

ينظرون الى عصاه التى ربطت من وسطها بحبل لقدمها وقد خمنوا انها قد تؤخذ فى مقابل ثمن كأس ولما رأوها كذلك أبوا الا ان يدفع مقدما فدفع وجاؤا بكأس ولكن النادل عندما وضعه على الطاولة لم يقل تلك العبارات المعتاده، تفضل يا محمود بيه وان كان قد وضع الكأس برفق، ولكن محمود نظر اليه محاولا ان يقول شيئا ثم عدل عن الكلام . .

تناول كأسه الاول، هذا الكأس الذى كان قد هجره منذ بعض الوقت، وما احس له من طعم ولكنه ازدرده وكان ينظر فى كل الوجوه متفحصا دون وجل، وقبل ان يترك المكان عندما تناول كأسه الثانية قال، لقد تركت بلدى هروبا فانزويت هناك فى تلك البقعة هاربا من عيون الناس، وانتقلت امى الى بارئها هروبا من هذه الدنيا، وقتل ابنى كأنما الله اراد ان اتوجّع اكثر، وانكفأت زوجتى على وجهها وماتت كأنها لا تريد ان ترانى، وتهت فى الارض فلم استقر فى مكان، وها قد عدت اليكم وما عرفتمونى، نظر الى عصاته واضاف، ولم يبق لى فى هذه الدنيا غير هذه، وكان يهزّها ويطرق بها الارض، انتفض وكأنه ما اصيب بهزال، خرج من البار حيث وجد فى زاوية الشارع وقد مات وهو يقبض بيده اليمنى على تلك العصاة، وكان فى قبضته ورقة كتب عليها، اعيدوها فقد اغتربت معى وحق لها ان تدفن هناك، فى بنغازى، لأنها فرع من شجرة نابتة على تلك الارض الطيبة . .

(8)

كان ادريس يتهيأ للعودة الى ارض الوطن وكانت اخواته فرحات وكذلك والدته التى كانت اعز امنياتها ان تعود الى الوطن لأنها لا تريد ان تموت فى الغربة ولأن حبيباتها سيتزوجن هناك وهى تودّ ان تراهن متزوجات وان طال بها العمر تفرح بابنائهن، وهى عندما تفكر فى هذا الامر تتنهد وتقول، رحم الله عبدالله فلا سترة لنا فى غير بلادنا، وقد تناقل الناس قصة هذا العجوز الغريب والذى قيل انه يدعى محمود وكيف انه كان يقول انه فقد الولد والام والوطن والزوج ثم وجد ميتا وكان وهو ميت كأنه جالس يقبض على عصاه وعندما نقل وجدت فى يده ورقة مع مقبض تلك العصاة كتب عليها، اعيدوها فقد اغتربت معى وحق لها ان تعود وان تدفن فى بنغازى، كان الناس يتندرون بدفن العصاة وهذا العجوز الخرف فهو وان كان قد مات بهدوء ووجد كأنه جالسا فلابد ان حياته كانت تعيسة وقد رحمه الله بان مات، تداول الناس القصة كثيرا حتى كأنها واحدة من قصص ألف ليلة وليله او حكايا ابى زيد الهلالى والخفاجى عامر حتى وصلت ادريس الذى كان يعلم بما ألم بمحمود فراح يبحث عن العصاة وكان عليه ان يثبت صلّته بالمرحوم ولماذا يريد هذه العصاة التى اكل عليها الدهر وشرب لكنه رغم ذلك كان يصّر على انه الوحيد الذى يجب ان ينفّذ وصية المرحوم، وبعد اخذ وعطاء سلّموه تلك العصاة التى فرح بها كثيرا اذ انه ربما يكون بذلك قد رد بعضا من جميل وقرر ان يحدّث امه بالقصة الطريفة وهى وان كانت لا تعرف محمود هذا ولا غيره ولا هى عرفت حتى الشارع الذى تقيم فيه فانها ولا

شك قد سمعت الرواية التى يتداولها الخلق اذ ربما نسج الخيال غدا او بعد غد رواية اخرى وقد يحدث ذلك الخيال من محمود وليا صالحا يزار للتبرك، ولقد كتبت القصة فى الصحف ايضا لكن احدا من اهل ادريس بالتأكيد لم يقرأها ذلك ان الصحف لم تكن لتدخل بيتهم وان اغلب اخواته لا يقرأن الصحف وقد حرمن من متعة القراءة او اكمال التعليم لأن والده يرى فى ذلك ما يعيب وهذه خسارة اخرى، المهم انه حدث امه بالقصة وذكر لها كم تعب لكى يحصل على تلك العصاة وكيف انه يرى ان ذلك نوعا من الوفاء حيث ينفذ وصية محمود الذى لم يره الا اثناء ايام العزاء وقد اعجب برايه ويعتقد انه كان يود ان يعود الى الوطن ولكن الظروف قست عليه، وهكذا اوصى بعصاه ان تدفن فى بنغازى وربما لا يكون يقصد العصاة نفسها اذ لابد ان يكون ذلك رمزا لشئ آخر . .

فقالت الوالده، وغير هذا ما هو المرمى الذى حفزك على هذا العمل ؟

قال، ان لتوصية محمود معنى كبيرا فى رايى، ورغم انه كان منزويا لا يخالط الناس ولا يتحدث مع احد فقد كان وفيا وتواقا الى ان يعود الى بلاده ولولا حبه لوطنه ما كانت تلك الوصية وعلى كل حال فماذا نخسر بنقل هذه العصاة، ولربما راودت الام بعض الشكوك ولكنها احجمت عن الكلام شاكرة لأبنها حسن فعاله، ولكن ادريس فوجئ خلال اليوم الثانى بان رئيس المباحث فى المنطقة يستدعيه مما افزع والدته واخواته كأنما احسّوا بان هناك شيئا ما يدّبر للحيلولة دون عودتهم وكان استدعاء عاجلا . .

رئيس المباحث يسأله عن صلته بالمرحوم محمود ومتى عرفه وكيف علم بقصة العصاة ولماذا بحث عنها ثم لماذا يصّر على اخذها معه ؟

وقد استغرب الشاب هذا الاستدعاء والاستجواب، لكنه قال، انه لا يعرف محمود الا فى فترة مأتم ابيه وانه لا يعلم شيئا عن عمله او اقامته

لكنه سمع عن قصة العصاة كما سمع آخرون واعتقد انه نوع من الوفاء ان يأخذ العصاة الى حيث اراد صاحبها . .

رئيس المباحث، وما فائدة ذلك ولماذا ؟

الشاب، ليس هناك من فائدة محددة وكما قلت فهو يعرف والدى واردت تنفيذ وصيته وهى مجرد نقل عصاة قديمة . .

رئيس المباحث، لا تتهرب من السؤال، لماذا ؟

الشاب باندهاش، وهو ينظر فى عينى رئيس المباحث الذى اعتقد انه سيكتشف سر خطير، لا شئ، قلت لا شئ فهى مجرد عصاة قديمة . .

رئيس المباحث هازئا، هه لا شئ !! أتريد ان تتغابى، قل ماذا كان مخبأ فى العصاة ؟

الشاب مقطبا ومحتدا، قلت انها مجرد عصاة قديمة عاديه وهى ماتزال مرمية فى البيت . .

رئيس المباحث، يأمر باحضار العصاة ويستبقى الشاب ريثما تفحص تلك العصاة المعجزة . .

ويتضح بعدئذ ان احد زعماء المعارضة قد ابلغ المباحث ان محمود كان عميلا للقذافى وان العصاة بها سر من الاسرار الخطيرة التى ربما توقف عليها مستقبل المعارضة وامن البلاد وخطط اخرى قد تهز العالم، ولكن رئيس المباحث عندما فحص العصاة هز رأسه تعجبا ودعى الشاب الى الانصراف معتذرا له وقد حاول ان يبقى العصاة ولكن ادريس اصّر على استعادتها مرددا ان الوفاء يقتضيه ان يحافظ على الوصية مهما كانت الامور، وعندما يعود الى البيت تتعوذ والدته من الشيطان وهذه العصاة التى وقعت عليهم من السماء وكادت تخلق لهم مشاكل اذ خيّل اليها انه فعلا هناك سر ما وراء ذلك الرجل وموته ثم قصة عصاته، لكنها هدأت بعد قليل . .

ولقد انشغلوا جميعا فى الاعداد للعودة، وهناك كانت فرحة وسعادة العائد بعد غياب والمشتاق للقاء الاحباء بعد انقطاع طويل، وكان فصل ربيع مزهر رائع وما اجمل بنغازى فى وقت الربيع فهى المدينة التى تبلّلها مياه البحر الابيض المتوسط من الشمال والغرب وتحتضنها مروج الجبل الاخضر من الشرق والجنوب وقد تعوّد اهلها على الخروج الى هذه المروج اثناء العطلات فى رحلات يسمونها (زردة) وتجددت فى النفوس ذكريات ماضيات واحلام وآمال، تقاطر الاصدقاء وابناء العم على زيارتهم مرحبين ومهنئين بسلامة العودة وان كانت العائلة قد انشغلت لعدة ايام بما يشبه المأتم الجديد اذ ان الاقارب لم يكونوا قد تمكنوا من تقديم التعازى فى وفاة الوالد، وكانت الوالدة رغم تلهفها على زواج بناتها قد اعتذرت عن الحديث فى هذا الشأن الى بعض الوقت عندما فاتحتها احدى قريباتها فى الامر، قائلة ها نحن قد رجعنا ولدينا من الوقت الكثير وستكون ايامنا كلها افراح وان كانت القريبة قد ألمحت الى ان خير البر عاجله الا انها قدرت الظرف وهكذا لاح الامل واشرأبت الاعناق لرؤية العرسان ففى العائلة اربع بنات تعدّن سن الزواج بقليل وذلك ما كان يؤرق الام، وفى ليبيا المناسبات كثيرة التى يتزاور فيها الناس ويتناولون مختلف الاطعمة وتذبح فيها عشرات الخراف، منها الافراح كالعرس والختام والاعياد الدينية كالمولد النبوى وعيد الفطر وعيد الاضحى واداء فريضة الحج الخ والاحداث كالموت والمرض وغيرهما، ولا تنتهى الزيارات بالطبع مرة واحدة، ففى الزواج مثلا هناك الخطبة ثم عقد القران ثم ليلة الحناء ثم الزواج ولكل من هذه ترتيبات وأكلات وملابس وهدايا الخ وقد ينشغل البيت الواحد لمدة تطول فى افراح دائمة يتزوج فيها الاخويين او الاختين، وشغلت ايضا عصاة محمود وقصة وفاته وقتا لا باس به وتطورت حسب خيالات الناس واختلاف رواياتهم . . .

(9)

عاد فتحى مترنحا كعادته بعد ان اقفلت آخر حانة ابوابها وكأنه لا زوج ولا بيت له، وهو اضافة الى اهماله فى مظهره لم يعد يهتم حتى بحلاقة ذقنه التى ظهر عليها شعر كثيف مشوّك، وعندما فتح الباب وقد فعل ذلك بصعوبة اذ كانت اصابع يده ترتعش فما وضع المفتاح فى ثقب الباب الا بعد عدة محاولات، فوجئ بفوزيه تجلس فى الصالون المقابل للمدخل وان لم تكن الملامح لتتوضح امام عينيه بيسر فقد ميّزها وكانت ترتدى روبا مقلّما طويل وشعر رأسها موزع بين صدرها وكتفيها غير منظم كمن كان يحاول النوم دون جدوى، نظرت اليه بازدراء فقد بدأ هزيلا رثا ولم تنبس بكلمة بينما حاول متلعثما ان ينطق بكلمات، مساء الخير، فجاءت الكلمات متقطعة حروفها متباعدة، واتجه مباشرة الى حجرة النوم فتبعته وما كاد ينزع حذاءه حتى راح يغط فى نوم عميق محدثا صوتا كالشخير اذ انه انكفأ على وجهه ولم يكن فى وسعها إلا ان ذهبت الى حجرة اخرى لتنام ولكن رأسها كان مليئا بخليط من الافكار والهموم والهواجس . .

كيف يتغير الانسان بمثل هذه السهولة، كان يقول لها انه احبها وانه من اجل الزواج بها كان على استعداد لأن يعمل كل شئ بل هو جعل كل معارفهم يسعون لدى والدها عندما بدرت منه معارضة بسيطة فى اتمام هذا الزواج، وهى لا تنكر انها بادلته ذلك الحب ولكنه منذ ترك البلاد اصبح مخلوقا آخر مما جعلها دونما رغبة منها تبادله البرود بل الازدراء فما قيمة المال اذا لم يكن سعادة وصفاء؟ ولقد كان خليقا به ان يقبل ما حدث كما قبله غيره بل وجدير به ان يحمد الله على انه حظى بزوجة هادئة رائقة

قانعة جميلة، ام تراها بدت فى عينيه كاى عمارة فقدها او انها حولت الى قطعة اثاث قديم اشتراه بماله ؟ قامت فجأة لترى وجهها فى المرآة، انها فى عز شبابها ورونق حمالها بل هى اصبحت امرأة كاملة الآن فقط، ألا يذكر هذا الرجل ان المال فانى وان الحياة الزوجية السعيدة هى الكنز الباقى ؟ اتراه اراد فقط ان يضم قطعة جميلة الى اثاثه وعندما فقد بعض ذلك الاثاث اصبحت غير ذات اهمية، ثم ألم يكن من الافضل لهما ان يبقيا فى بلادهما كبقية الناس يشاركون فى العمل والبناء، وما اجمل ان يبدأ الانسان القادر فى البناء من جديد وان يحس بانه يخدم بلاده ويساهم فى تقدمها بل يشارك فى معاناتها ان اقتضى الامر ان تعانى ؟ هذا ما كان يدور بخلدها وهى تنظر الى الجدران من حولها فتراها صماء وتفكر فى هذا الزوج الذى عاد لتوه من خمارة ما كأنه ميت وهو لا يدرى معاناتها وآلامها بل وشكوكها فى استمرار علاقتهما الزوجية على هذه الوتيرة، ويقشعر بدنها عندما تفكر فيه كزوج، وان جل ما تتمناه وترجوه هو ان تعود الى بلادها لتعيش بين الناس، وما لبث الدفء ان دب فى جسدها عندما تفكرت بلدها بنغازى وتلك الوجوه الودودة والحياة الهادئة، بنغازى بكل ما فيها من سبخ وما يظهر فى شوارعها من حفر فهى الدفء كله، فيها رحلة الطفولة وريعان الشباب ونزقه وحلاوة ذكريات النضوج وأمل المستقبل فى بيت هادئ واولاد يمرحون، وما انفكت تخاطب نفسها عاتبة تارة ومدغدغة تارة اخرى، عاتبة لأنها وافقت على هذا الزواج وان كان قد شجعها على ذلك والدها عندما قرر ان يخرج من البلاد لأن الوالد لا يريد للحياة الزوجية ان تنفصم بل هو جاء واقام معها ليكون بقربها مرشدا ومواسيا وكأنما كان يقرأ فى كف الغيب، وسرعان ما يميل بها الاعتقاد فى العودة ويدغدغ مشاعرها الامل فى انها لم تفقد شيئا، ثم سرعان ما يتجهّم ذلك الوجه الصبوح وتغرورق تلكم العينين الصافيتين الجميلتين بدموع حرّاقة عندما يعود بها التفكير الى ما وصل اليه الحال مع هذا الزوج، وتتساءل، ترى ما فائدة الاستمرار معه وهو قنوط بائس إظلمت الدنيا فى وجهه ؟ ولم يعد يرى هذا الوجه الصبوح ولا عاد يلامس الشعر المناسب

الجميل الذى كان ينام عليه ؟ وماذا يمكن ان يقول عنها الاهل والجيران اذا ما تركته الآن انسانا محطما غارقا فى اكواز الخمر ليل نهار ثم هل يطاوعها اباها اذا رغبت ؟ سرحت كثيرا فى افكار جامحة حتى كأنها تلفظ انفاسها بعد لحظات، وطافت بها الذاكرة فى كل مكان كما لو كانت تحلّق فى الاجواء العليا سعادة وفرحا، ثم تلاشت الافكار وحلّ النوم محلها وقد توسدّت يدها اليمنى التى غاصت فى ذلك الشعر الاسود الفاحم الذى انتشر كسنابل زرع خصيب، وطاف بها حلم جميل كان يتخلله وجه ذلك الصديق القديم وتلك الايام الماضيات وتراى لها وهو يرد على مكالماتها الهاتفية، هذا الانسان الذى ما فقد يوما حرارة الارتباط بالوطن وما تلوث يوما باوحال المال والجرى وراء المزيد من الكسب ولا داخلت رأسه افكار غير واقعية، ابتسمت وهى تتذكر انها كانت صديقته وملهمته فى القصة والشعر وانه اول من علمها معنى الحب وهو الذى ما ارادت منه علاقة حرام ولا احست فى يوم ما بغير جدّه وصدقه، كان لا يطيب له الحديث الا فيما يفيد وحتى حديثه عن الحب والعلاقة بين اثنين كانت دررا تسمو بالحب الى مستوى رفيع، تصورت انه كان يخاطبها رافعا حاجبيه كعادته متسائلا، لماذا اختفت فوزيه من حياته وهل هى نسيته ام انها ارادت ان تنساه احتراما لرباط الزوجية ؟ وبتودد ظاهر، يقول، هل من عودة الى ايام كانت بريئة وسعيدة وحب طاهر ؟ وهل كانت تعاقبه بما فعلت، ولماذا ؟ وهنا قفزت من مرقدها وهى تهتف، لا، لا والله، نهضت وكان رأسها ثقيلا، نظرت الى المرآة سارت خطوة ثم توقفت، ترى هل يجب ان تذهب الى حجرة زوجها اولا ولابد انه مازال نائما ام تقوم بتقديم افطار والدها ؟ واذا سألها ماذا ستقول له ؟ بعد تردد تتوجه الى حيث يجلس والدها وبعد تبادل تحيات الصباح طلب اعداد قهوة وذلك على غير عادته، فتساءلت، هل غيرت عادتك ؟ الا تريد افطارا مع حليب ساخن كالعادة ؟

اجاب، شكرا لا احس برغبة فى الافطار اما القهوة فربما تساعد على تخفيف الصداع الذى احس به وهو ما ايقضنى مبكرا، ولم يشأ ان يقول

لها انه لم ينم على الاطلاق وانه سمع وشاهد ما جرى، بعد ان تقدم القهوة ينظر اليها والدها فى قلق ولكنها تحاشت نظراته وقد ادرك ماذا يعنى ذلك ولكن ماذا عساه أن يفعل..؟

سألها، خير يا فوزيه ؟

اجابت، لا شئ يستحق الذكر او القلق..

رد، ربنا يسهّل..

تنهدت ولم تجب وقد انصرفت لترى ما اذا كان زوجها قد استيقظ، تراه مازال منكفيا على وجهه فعادت ادراجها لتجلس مع والدها، وقد خيم على جلستهما صمتا كاملا فلا هى تكلمت ولا هو سأل، وبعد بعض الوقت انضم اليهما الزوج اذ خرج من حجرة النوم بنفس لباسه الذى جاء به بعد منتصف الليل وكان شعره منكوشا غائر العينين بادئ عليه الارهاق مطأطئ الرأس فهو كعادته دائما لا ينظر مباشرة الى احد ولا يثبت عينيه على شئ..

الوالد، لعلك اليوم بخير يا فتحى وان كان الارهاق ظاهر عليك ؟

يرد، انه الصداع المتواصل..

الزوجه، تسأل ما اذا كان يرغب فى تناول الافطار، ودون ان ينظر اليها يقول، لا، اريد كوبا من الليمون فقط، يلفظ الكلمات حافة كأنها آتيه من اعماق بئر خال، وقبل ان تصل المطبخ يغير رأيه فيطلب كأسا من البيرة، تنظر اليه فى لا مبالاة..

قلت الصداع، الصداع ولأول مرة ترى الى عينيه فاذا هى حمراء قانيه، تسأله ان يعد البيرة لنفسه لأنها لم يحدث ان فعلت ذلك وفى نفس الوقت يتلفظ والدها بهمس، اعوذ بالله من الشيطان، يقوم متكئا على حافة المقعد بيمناه بصعوبة متأوها، لعن الله الصداع..

فيسأله الوالد، ومنذ متى هذا الصداع ؟

يلتفت نصف التفاتة محاولا ان يرسم ابتسامة صفراء على شفتيه بينما كانت عيناه شبه مغمضتين، يقول منذ مدة طويلة، طويلة، ألم تسمع يا عمى كم عدد الذين ماتوا من الصداع بعد الثورة البلشفية ؟

العم فاغرا فاه باندهاش، ما علاقتنا بالثورة البلشفية واين نحن من ذلك البلد البعيد ثم ما علاقتك انت بكل ذلك ؟

يرد ببرود، قيل قديما داويها بالتى كانت هى الداء، ويتجه الى المطبخ..

ينظر العم الى ابنته متعجبا فلربما كانت تعلم ان زوجها قد اصابه مس منذ فترة؟! لكنها تزّم شفتيها الجميلتين وكأنها ترسم علامة استنكار بينما تشغل يديها بضم ذلك الشعر الاسود الذى تدلى على صدرها محاولة وضعه فى حزمة واحدة على كتفيها، لا ترد على والدها بشئ ولكن دموعها ترقرقت فى عينيها وان قد حاولت بسرعة ان تكبح غريزة البكاء وما لبثت ان غطت وجهها براحتيها بينما طفق والدها يستعيد احداث الشهور والايام الماضية متذكرا انه ربما كان قد قسى عليها ولم يعطها فرصة للشكوى او الرفض فى حين ان زوجها لا يهتم بامرها ولم يعد يحس بوجودها وجعل حياته منحصرة فى معاقرة الخمر والتعلل بامراض لا وجود لها والشكوى مما اصابه فى بلاده من الثورة واذا ما نوقش لجأ الى اعذار العاجزين كالقول بان كل ثورة هى بلاء وخراب وكل تغيير هو الى الاسوأ وانه ما كان لأحد أن تمس زرقه لو كانت هناك عدالة، هذا الزرق الذى حصل عليه بالكد والعرق وبناه طوبة طوبه وقرشا قرش وقد نسى انه لا يمكن لعقل سوى ان يصدّق انه فى الامكان لأى انسان مهما بلغت عبقريته ان يبدأ صفر اليدين ليحصل على عدة ملايين فى فترة قصيرة جدا، يقيم المشاريع ويبنى العمارات ويضارب فى الاراضى لولا العلاقات والواسطة والرشوة والطرق الاخرى، وفكر الحاج ان يواجهه بتلك الحقيقة فلربما اعادته الصدمة المفاجئة الى ادراك الصواب والعودة الى اصله ذلك ان العمّال الذين يهزأ بهم عندما حصل على فرص استغلال جعلته يكسب اكثر انما هم طبقته التى خرج

منها هو ووالده واهله وهى الطبقة صاحبة المصلحة والحق فى ثروة البلاد، قرر ان يحادثه فى هذا الامر، نهض ليتحدث الى فتحى علّه يعيده الى صوابه، وما كاد يفاتحه فى الامر حتى انفجر يكيل الاتهامات، هل تعتقد ان الاستغلال كان فقط وقتئذ ؟ انه الآن اكثر، وهل تعتقد ان الرشوة كانت فى ذلك الوقت فقط انها الآن اكثر وعلى كل المستويات ولقد سمعت انك الآن لا تستطيع ان تعمل اى شئ بدءا من عامل الهاتف الى اىّ مستوى دون ان تدفع عمولة او رشوة، واذا لم تسمع فاذهب الى هناك واسمع وانظر ماذا حدث ؟ يتوقف قليلا، فيحاول العم التدخل قائلا، الفساد قد يوجد فى اى مكان واى وقت ولكن طرق العلاج موجودة وكثيرة، يشيح عنه بوجهه جاعلا راحتى يديه فوق اذنيه، فيخرج الحاج لأنه لا فائدة من الكلام مع هذا المخلوق !

ومن الصالون نظر الى الباب فاذا فتحى خارج وهو يترنّح كما جاء فى هزيع الليل الماضى، تبادل مع ابنته نظرات تعجب ولكنها انسلّت كأنما ارادت ان تفسح المجال لوالدها كى يفكر، وقد انصرفت الى اعداد وتهيئه غرف البيت، جعل الوالد يجول بنظره الى حيطان الصالون الذى جلس فيه ويميل برأسه قليلا الى حيث الباب الذى خرج منه زوج ابنته وكأنه فكر فى ان يلحق به او يخرج دون ان يعود اذ لماذا هو محبوسا بين هذه الحيطان ؟ ثم عاد ففكر فى ابنته وغربتها وكيف انه جعلها تلحق بزوجها دون ان تكون راغبة فى ذلك وهى التى ما رغبت ان تترك بلدها يوما ولا كانت تفكر فى هذا الزواج وهو وان كان قسمة ونصيب وسترة فانها اليوم تكابد غربتين، غربة الاهل وغربة الزوج ! بل وألم الازدراء وعدم الاهتمام وهى الزوجة التى يجب ان يضعها اى زوج عاقل فى سويداء القلب، يستفيق من تفكيره، فيقول، ربنا يستر..

(10)

كان خالد قد قطع عهدا على نفسه بزيارة بيت صديقه الحاج يوسف على إثر تلك المكالمة الهاتفية التى فاجأته بها فوزيه، ولقد أنشغل لمدة من الزمن بعد تلك المكالمة ولكنه لم ينسى قط انها دعته للزيارة وانه وافق وانها هى التى بادرت بذلك، وعندما فكر ذات مرة ان يقوم بتلك الزيارة وكان يداعب ابنته العزيزة التى كان يدغدغها تحت ابطها وقد احس اليوم عندما لامست يداه صدرها بانوثتها وقد بدت تنضج فاقلع عن تلك المداعبة لكنه احس بشئ آخر اثقل عليه ذلك هو المسؤولية العائلية، الاهتمام بالاولاد والحنو على تربيتهم وطلباتهم، وكان طليقا لا يقف عند حدود ويفخر بانه تنشق عبير كل زهرة وقطف الورود من حدائق الدنيا، تخلى عن فكرة الزيارة ذلك اليوم ولكنها ظلت تراوده فما بالقلب لا تمحوه السنون والايام، وان كان الوعد يمثل نزاعا بين العقل والنفس، بين الرغبة والمسؤولية، بين الواقع والخيال، بين ما يوجد وما يحتمل، هى فعلا تواجه ازمة شديدة الوطأة مع رجل لم يعد يهتم بشئ، غرق فى سكره ليلا ونهارا وربما دفعه ذلك الى مجون آخر، وقد اصبحت حياتهما الزوجية جحيما لا يطاق، وادرك والدها مقدار تعاستها وهى الانسانه التى ربّاها وهو لا يحتمل فيها وخزة الشوكة فكيف سيحتمل معاناتها وربما كان هو ايضا فى حاجة الى من يواسيه او ينصحه ويفرّج عنه وقد كان فى السابق خير نصيح لخالد اثناء الازمة التى مر بها فكيف لا يقف خالد الى جانبهما ؟ ثم يتساءل، ما عساه ان يفعل ؟ هل يحاول اصلاح ذلك الزوج المعتوه ؟ واذا كان هذا الرجل قد استهان

ببلد كامل عاش وترعرع وانعم فيه بالعيش الوفير فهو لن يعير اهتماما لزوجتة او والدها اضافة الى انه فاقد الوعى اغلب الاوقات ؟ يفكر وقد خطرت بباله ذكريات تلك الايام الخوالى وكيف انه كان يناجيها ويداعبها ولا يطيق الابتعاد عنها وهى مفترة الثغر دائمة المزاح دنياها زهو ونشاط، وكيف كان يلتقيها كل يوم فى مدخل البيت عندما تكون عائدة من جامعتها وهو خارج من مكتبه، ولم يكن يسهر الا فى بيتها وهى التى كانت تعد الاكلات الخفيفة وبعض الشواء ولوازم الجلسة فى المساء مع ابيها، ثم تجلس هى فى حجرة مقابلة تداعبه بنظرات وحركات، ماذا عساه ان يفعل ؟ فاذا حاول التهوين من ازمتها وهو مستعد ان يتقاسم معها كل شئ على ان لا يتركها تواجه المصير المجهول فانه قد يواجه ازمة من نوع آخر قد تؤدى الى تشريد اسرة هانئة لم تواجه مشاكل فيما سبق . . وبعد تفكير وتردد قرر ان يفى بالوعد وان يقوم بالزيارة، زيارة صديق ودود لابد انه سعيد لأستقرار الحال وفشل العدوان الامريكى على البلاد وقد راى منه ذلك الموقف المتّزن عندما كانت الظلمة حالكة والقلوب واجفة ولا احد يعرف ماذا ستكون النتائج فى ظل التهديد الامريكى وهجمة الاعلام الغربى والسكوت العربى المطبق، كان موقفه وطنيا فى حين كان الكثيرون شامتون، واذا كان هناك من تحفظ لدى الجيل القديم على التغييرات الثورية السريعة فذلك امر مقبول فى اطار المصلحة الوطنبة وهو شئ فى كل الاحوال لا يرقى الى مستوى الخيانة او على الاقل الشماتة فى الاهل والبلاد، ولربما امكنه ان يساعد فوزيه على الخروج من ازمتها، والحب الصادق لا يفتر مع الزمن على اى حال، حرص هذه المرة على ان يرتدى ملابسه بكل عناية واهتمام وانتقاء اذ لم يعد هناك مبررا لأن يبقى الصورة العبوس منطبقة فى الاذهان، لابد ان يظهر امام فوزيه كما اعتادت ان تراه . .

اتجه الى بيت الصديق وكان الوقت مساء والطقس جميل وعندما اوقف السيارة امام البيت تطلع الى النافذة التى توقع ان تطل منها فوزيه او ربما

والدها لأنه كان قد اتصل هاتفيا وهم يتوقعونه، قبل ان يطرق الباب اعتنى برباط عنقه ولم يكد يقف امام الباب حتى فتح وكانت فوزيه مفترة الثغر ترتدى فستان ازرق مقلمّ تتدلى منه تلك الربطة التى اعتادت ان تضعها جول رقبتها وكانت فى غاية الاناقة المحتشمة وخيّل اليه انها ايضا اعتنت كثيرا هذا اليوم بمظهرها وكأن فؤادها يهفو الى تلك الذكريات، بادرها بالتحية مبتسما وقد التقت عيناه بعينيها السوداوين وكانتا هذه المرة محاطتا بهالة فاتحة السواد زادتهما جمالا، دعته الى الدخول فتقدم شاكرا الى الصالون حيث كان يجلس والدها وقد نهض مرحبا وكان هذه المرة يرتدى بذلة ليبية جميلة تتكون من اربع قطع ذات قماش حريرى سماوى مطرز بشكل بديع وينتعل حذاء خفيفا وكأنه قد خرج لتوه بعد حمام دافئ وقد ألتمعت عيناه وهو يرحب بصديقه بينما كان شعره الاشيب المنساب مصفوفا بعناية فائقة . .

بادره خالد قائلا، اراك فى مظهر العريس وفى صحة جيدة وربما مزاج رائق . .

أجاب، جعل الله ايامنا كلها سعادة، اهلا تفضل بالجلوس . .

وكالعادة سألت فوزيه عن القهوة او الشاى وبعد تردد اضافت، قهوة عربية ممتازة لأن الاحوال فيما ارى رائعة والحمد لله، بادلها خالد كلمات الود موافقا على القهوة المزبوطه، وبعد ان انصرفت لأعداد القهوة، سأل الحاج . .

هه ما هى الاخبار، الحمد لله لقد فشلت امريكا فى تحقيق أغراضها وارجو ان لا تكون احسست فى لقائنا السابق انى كنت متشائما ؟ . .

اجاب خالد، لا، شكرا، لقد كنت الوحيد الذى احسست بالراحة عندما تحدثت اليك، والاخبار جيدة فى ليبيا الآن، ثم وهو يبحث بعينيه يسأل، اين فتحى، وهو يضحك، ذلك المتشائم ؟

الحاج وهو يقطّب جبينه، اظنه فى احدى الحانات الآن ولقد هجر البيت نهائيا لأنه تشاجر مع زوجته، قالها وهو ينظر بعيدا وكأنه يؤنب نفسه، ثم تدارك متسائلا، كيف ترى الامور الآن بعد العدوان الامريكى ؟

اجاب خالد، قبل ان يحدث كان كابوسا كالحلم المزعج ولقد خيّل الىّ فى كثير من الحالات انها حرب لن تبقى ولا تذر، وعندما حدثت تبين للناس ان امريكا نمر من كرتون وكل التكنولوجيا المتقدمة سخرتها فى قتل العزل والابرياء، الاطفال والنساء، وهى على اى حال تجربة جيدة لأعصابنا ومعداتنا وقدراتنا، وها انت ترى ان العالم كله قد استنكر العدوان الامريكى بما فى ذلك الشعب الامريكى نفسه وشعوب اوربا . .

مال الحاج بكتفيه ورأسه الى الوراء بينما كان يطبق بيسراه على ذقنه مفكرا، ثم قال، ولكن لماذا نبالغ نحن فى التحدى وقد عرفنا انها دولة او ادارة مجنونة، ثم لماذا الكلام عن حلف وارسو وامكانية الانضمام اليه واى فائدة من ذلك ؟

وكان على خالد ان يوضح الامور او يبسطها، قال، اولا ألا ترى معى ان امريكا ومن ورائها الغرب سوف يحاربوننا بكل الطرق والوسائل مهما عملنا لمجرد اننا نريد ان نكون مستقلين ومحايدين، وثانيا انت تعرف انهم حاربوا جمال عبدالناصر ومصر لذات القضية، اذن المسألة هى ليست مبالغة فى التحدى بقدر ما هى سياسة واتجاه وموقف، وما يمكن ان نسميه مبالغة فى التحدى قد يكون مفيدا فقد يكمن فى التطرف القوة، وقد كانوا يعتقدون، وهكذا فعلوا مع جمال عبدالناصر ان الشعب سوف يرفع يديه ويطلب الرحمة، وحتى لو فعل ذلك لن يرحموه، اما فيما يتعلق بحلف وارسو ففى رأيى ان الامر جد مختلف، اولا لأن العالم اصبح (غرب وشرق) فقط وان كان الشرق قد اصبح على كف عفريت لأن السياسة الجديدة فى الاتحاد السوفييتى قد تؤدى الى انفراط كامل فى مجموعة حلف وارسو، هذا اولا، وثانيا، فان كلامنا عن حلف وارسو هو فى رأيى مجرد

تعبير عن غضب من ظلم الغرب وامريكا، وهذه حقيقة ولا ضير فى ان نتحدث عن عضوية حلف قد يكون قريبا غير موجود، ولعل قدرة اسرائيل العسكرية والسياسية هى ارتباطها الكامل بالغرب دون ان تفقد مصالحها فى الشرق واذا كانت امريكا وهى دولة عظمى لم تحترم اى قانون او مبدأ او عرف دولى بما قامت به ضدنا فمالذى يمنعنا من ان نعقد المعاهدات والاتفاقات مع اصدقاء يمكن ان يقفوا معنا فى الظروف الصعبة كالتى مرت بنا، وهنا يقاطعه الحاج قائلا، وهل تعتقد ان السوفييت يمكن ان يحاربوا معنا ؟

اجاب خالد، هنا ايضا نختلف فليست المسألة مسألة حرب ونحن لم نذهب لنحارب امريكا ولكن الاتحاد السوفييتى يمكن ان يقف معنا للدفاع عن انفسنا وهذا منطق وشرع، وهنا دخلت فوزيه لتقدم القهوة وكانت باسمة وهى تقول، كلام سياسه ومشاكل ليبيه، نظر اليها خالد وكأنه يريد ان يقرأ على صفحة وجهها ماذا تعنى اما الحاج فقد مال الى الوراء وقال، مشاكل ولكنها ليست ليبية فقط . .

قدمت القهوة وأستاذنت بالجلوس ورغم ان عينى خالد لم تفارقاها وفى داخله يقول، سبحانك ربى ما اعظم حكمتك، امرأة كأنها نحتت من مرمر لا تتغير بفعل الزمن، رشاقة وجمال أخّاذ، وخيّل اليه انها تزداد جمالا ورقة وادبا كلما تقدم بها العمر، ولكن لماذا وقد خلقها الله بهذا الجمال والرقة يبتليها بمثل هذا الزوج الاحمق الذى يشبه وجهه الحجر الاصم لا تظهر عليه ملامح الفرح ابدا دائم التبرم كثير النقيق كالضفدعة ؟ لا يفكر الا فى الكسب وباى شكل، وخطرت فى ذهنه حكاية كان يسمعها وهو طفل صغير، تقول ان امرأتين كانت احداهما زوجا لرجل فقير الحال يكدّ طول اليوم وهو يعمل على عربة (كارو) اما الاخرى فكان زوجها تاجرا كبيرا لديه اموال طائله وكانت هذه ترى صابتها فرحة سعيده فالزوج لا يفارق الدار الا عند الصباح اما هى فلا تلتقى زوجها الا نادرا لأنه مهموم

مشغول بين التجارة والحسابات والكسب والخسارة، وعندما تحدثت الى صاحبتها زوجة الرجل الفقير سمعت منها ما يسر الخاطر فارادت ان تجرب ما اذا كانت تلك هى طباع الناس ام انها مشاغلهم الحياتية، وجعلت تبذل جهودها الى ان اقنعت زوجها باقراض ذلك الرجل الفقير بعض المال ليفتتح لنفسه دكّانا يرتزق منه، وهكذا حدث وما هى الا فترة حتى حدث الخلاف وبدأت الشكوى والتبرم وجاءتها تلك الصويحبه شاكية من الزوج الذى اصبح تاجرا وانشغل عن بيته تماما، ثم فاجأتها قائلة بربك خذوا مالكم وأتركوا لى زوجى ! وقد يعنى هذا المثال ان المال ملهى وربما مفسد احيانا الا اذا كان كسبه حلالا وجاء فى ايد امينة وقلوب صافية صادقة، ولقد قطعت فوزيه سكوتهما اذ سألت خالد ما اذا كان قد سمع بما صار عليه فتحى، وكان صدرها البارز يرتفع وينخفض دليلا على الانفعال المكبوت وقد زاد تورد بشرة خديها، وقبل ان يجيب راح والدها يروى ما حدث بكلمات كأنها النار التى انضرمت فجأة فى صدره متأججة متفجرة وقد ارتسمت حول عينيه هالة وتصبب العرق من جبينه كأنما كان مثقلا باعباء اراد ان يزيحها عن هذا الصدر المضطرم، قال، ولعله اراد ان يفرّج عن ابنته كما انه ربما اراد ان يطوّح بآخر ورقة امام صديقه فى بحر متلاطم الامواج، وقد ادرك خالد انها ثورة عارمة من رجل يتّسم مظهره دائما بالهدوء والاتّزان وان عليه ان يخفف منها، يستمع، وقد هتفت فوزيه وهى تنهض ربما لأنها ارادت ان تفسح المجال لوالدها بان يقول كل شئ، قالت ارى ان الوقت مناسب لشاى أخضر ؟ الوالد، لقد ضقت ذرعا بهذا الانسان وتصرفاته وسلوكه وانت تعرف اننى ما اردت لأبنتى فراقا لأنه اكره الحلال عند الله ولكن ما فائدة كل المحاولات مع رجل اصبح لا هم له إلا الخمر والعربدة وكان كلما رجع ليلا وهو لا يعود الا بعد منتصف الليل يكيل السباب ويقذف بالعبارات المشينة فى وجه زوجته التى ما تبرمت ولا اشتكت يوما وها قد هجر البيت نهائيا منذ ايام وانا لا استطيع البحث عنه

فى الحانات، وتحدث عن كيف ان ابنته ارغمها على الالتحاق بالزوج الذى ترك البلاد وكيف بقى معهما طيلة الفترة الماضية وكان يعيش على اعصابه بسبب تصرفات هذا الزوج الرعناء وتهجمه على بلاده واهلها بشكل دائم، يتوقف قليلا ثم يضيف، من لا خير فيه لبلاده لن يكون وفيا لشئ، وتوقف عن الكلام بينما كان يشبك يده اليمنى فى اليسرى بعصبية بالغة مطرقا برأسه الى الارض مما ابرز تجاعيد الذقن اكثر، وران صمت مطبق، كان خالد يحاول خلاله ان يجمع كلمات قد تطيب خاطر صديقه الذى لم يره غاضبا ثائرا فى اى وقت كهده المرة، وكان يتكلم كجهاز الراديو المفتوح بصوت عال استمعت اليه او لم تستمع وكانت همومه مبعثرة كحبات مسبحة انفرطت على حين غفلة، تدخل فوزيه بالشاى وهى اذ تبتسم تظهر على خديها غمّازتين تزيدان الوجه جمالا وما تكاد تضع الشاى على الطاولة الصغيرة حتى ادركت الحالة التى كان عليها والدها فاختفت ابتسامها وحل محلها اكتئاب قلب ملامح الوجه الجميل ولكن خالد وقد وقف ليساعدها على وضع سفرة الشاى بادر بالقول، سوف يسوى كل شئ باذن الله، وما هى الا سحابة صيف سرعان ما تنقشع، وبضحكة، ما كنت اتصور ان الحاج يمكن ان يبلغ به الغضب هذا المبلغ فى اى وقت، يا ساتر ما اصعب ان يتحول الهدوء الى زوبعة والاتزان الى غضب، تجلس الابنه ويستمر خالد فى تهدئة الجو بكلمات رقيقة، صحيح الحياة متغيّرة متقلبة والاشجار الخاوية سرعان ما تقتلعها الرياح العاتية ومن يفقد الامل لا يقوى على البقاء، واظن ان فتحى فاقد كل أمل مع الاسف الشديد..

يتأسف الحاج وهو يقول، ما حيلتى وقد كنت اود ان افرغ ما فى قلبى اذ زاد كل شئ عن الحد المحتمل وشكرا لأنك جئت وهوّنت علينا وطأة الظروف

بعد الشاى ينصرف خالد واعدا بانه سيبحث عن فتحى اذا عرف اين يجده وسوف يتصل هاتفيا اذا توفرت اى اخبار ولا يفوته ان يطمئن صديقه

على ان الوضع فى البلاد جيد والامور عادت الى طبيعتها، بصوت خفيض يرد الحاج، سوف ارجع فورا الى البلاد بمجرد انتهاء هذه المشكلة على اى وجه لأن خبزا فى بلدى خير من العسل فى غيرها، يلاحظ ان فوزيه تحاول بصعوبة بالغة ان تمنع دموعا بدت تندفع من العينين مغتصبة طريقها الى الخدين فينصرف مسرعا كأنما ازعجه ان يرى الدموع تنحدر من عينين ما خلقتا للبكاء ولا قلب يمكن ان يغشوه الحزن !.

فى الطريق الى البيت يفكر فيما يمكن عمله، اسرة وكأن زلزالا عنيفا قد هزها لينقلب فيها كل شئ دمارا، او كارثة حلت عليها فاعمت البصائر وصمّت الآذان ولو كان يفهم لذلك سببا لهان الامر !! انسان يفقد الامل فى كل شئ فيدمر حياته ويشغل الآخرين، ووالد يحاول رأب الصدع مقتنعا بان اكره الحلال عند الله الطلاق وقد جاء بابنته عملا بهذا ولكنه لم يجد فرصة للاصلاح فطفح به الغضب حتى افقده ذلك الهدوء والاتزان المعهودين فيه، وامرأة كملاك تعصف بها رياح عوات لا حيلة لها تجاه ما يحدث سلاحها الذى يهوّن الألم دموع غزيرة تذرف على الحظ العاثر، يا لسخرية القدر !!؟

(11)

عاد الشاب ادريس الى بلاده ويكون بذلك قد كسر القيد الذى ارادوا ان يكبّلوه به، وهو وان كان قد حقق رغبة والدته واخواته فقد تمرد على رفاق والده، وكان يرى أنهم مجموعة من المنتفعين الذين يتاجرون بالشعارات وفى ذهنه دائما كلمات المرحوم سى محمود (من لا خير فيه لبلاده لن يكون فيه خيرا لأحد)

وما اجمل ان يعود الانسان الى وطنه بعد غياب وان يرى ان هذا الوطن بخير، وما اسعد الاسرة التى طال أغترابها ان تكون بين الاحباء فى الوطن، ولكن ما اتعس المرء اذا ما صدمه الواقع واذا ما اكتشف ان ما كان ينتظره هو غير ما وجد، امر عجيب غريب، بلد غنى متحرر يسلك سياسة وطنية قومية لابد انها على المدى البعيد ستؤدى الى تقدم البلاد وتطورها ولكن الامر العجيب الغريب ان ذلك الامل والتطلع غير واضحى المعالم ! العقيد ينادى بالنقد البناء وكشف العيوب من خلال المؤتمرات الشعبية باعتبار ان الممارسة السياسية بيد الشعب (وتلك كما يقول هى الديموقراطية الشعبية) ولا أحد يقدم نقدا بناء ولا احد يكشف شيئا الا لغـرض شخصى او قبلى !! ترى ماذا حدث ؟ هل افسد الناس الحكم ام افسدتهم السياسة او اللاحكم ؟ او هل افسدهم البترول والدولار والمشاكل الحياتية ؟ اذا دخلت البلاد عن طريق المطار قوبلت بوجوه عابسة ومعاملة سيئة ووجدت الناس لا يهتمون بملابسهم ومظهرهم، واذا دخلت عن طريق الموانئ البحرية احسست وكأن موظف الجمارك فى تحفزه يهم برميك فى البحر ناظرا اليك

شزرا، حاقدا اذا وجد معك ابسط الاشياء حتى لو كانت ملابس اطفالك ! واذا ذهبت الى منشأة او مؤسسة فانك لا تستطيع ان تحصل على الضرورى من الاكل والملبس الا اذا كان احد افراد قبيلتك او معارفك موظفا هناك، وتجد المنشأة خاوية خالية بينما بضائعها تباع فى السوق السوداء ربما خارج مقرها مباشرة، واذا كلف احد بالاشراف على مرفق ما فانه لا يهتم بالمرفق نفسه ليطوّره ويجعله يؤدى خدمة اجتماعية او اقتصادية كما كان يجب بل تجده يهتم فقط بتوافه الامور، الوساطات والتحّيز او تخطيط المقالب ضد الآخرين، ولا يكاد يمر بعض الوقت إلا والمؤسسة او المنشأة خاوية خربة، ومن لا يصدق هذا فليدخل مرافق مطار طرابلس العالمى او يحاول استخدام الخطوط الجوية الليبية او سيارات الاجرة فى المدن تلك التنك التى تزحف على الارض يغطيها التراب وفى داخلها زبالة، ولا تحكى عن سائقها ولا اجرتها فهى والعياذ بالله، يتساءل الشاب، أهذا حقا المجتمع الجماهيرى المنشود ؟ القبلية ترفع قرونها والواسطة تمد لسانها والقفز على الحبال فى كل مكان !!

العقيد يقول، لا تعتمدوا على الخارج ولا حرية لشعب يأكل من وراء البحر ومن لا ينتج لا يأكل الا العجزة، وهم يهّرولون الى الخارج افواجا وجماعات ! واذا ما تأخرت التاشيرات لعدة ايام صرخوا واشتكوا ولا تحكى على اقسام الجوازات للحصول على التاشيرات فهى طوابير ومزار، تجد الاسرة بكاملها قد خرجت باطفالها الرضع من اجل تحويلات العمله لتذهب الى تركيا من اجل شراء ذهب فى الغالب مغشوش ولا تسأل عما يحدث لتلك الاسر هناك فى انقره واسطنبول فهو شئ مخجل معيب. . .
فى المؤتمرات الشعبية هناك من قال اخرجوا الاجانب ونحن نعمل ال 24 ساعة وما يكاد ينتهى مؤتمره الا وهو يحزم حقائبه ليخرج سائحا فى بلاد الله وربما يكون اول من استعمل الواسطة من اجل التأشيرة وتغيير العملة وشراء الباقى من السوق السوداء !؟ كثيرون اولئك الذين تشبّهوا بالعقيد

فى ملابسه وقالوا انهم ثوريون ولكنهم سلكوا طريقا غير طريقه ونهجا غير منهجة وتعامل غير تعامله، هناك من ارتدى قميصا بغير ياقة لأنه شاهد العقيد يرتديه وتظاهر بالثورية ولكنه سرعان ما استغل وأفسد واستولى على (فيلا) ثم احضر سيارة (بى ام دبليو 733) بالطائرة لأستعماله الخاص بينما العقيد يقود تراكتورا للزراعة، أهذه فعلا سلطة الشعب ؟؟

ذهب الشاب الى سلطات المطارات بايصالات كانوا قد اعطوها له عن الكتب واشرطة الفيديو التى احتجزوها هناك عندما وصل، فى المرة الاولى قيل له ان الذى كتب الايصالات غير موجود وعليك ان تعود بعد عدة ايام، وفى المرة الثانية قالوا له انها قد تكون فى مخزن آخر وليس فى المطار، وفى المرة الثالثة قالوا له لقد تغيرت اللجنة الشعبية ونحن جدد، راجعنا بعد مدة، وبعد مدة راجع، قالوا ليس لدينا شئ وربما ضاعت تلك الاشرطة والكتب بسبب اهمال اللجنة السابقة !! سأل ماذا افعل ؟

هز أحدهم كتفيه ناظرا الى الايصالات، واجاب، هذه ليست مسؤوليتنا فنحن جدد. .

سأل مرة ثانية، هل انتهى الامر ؟

قالوا، هو كذلك. .

ينصرف دون ان ينبس بكلمة واحدة والا فانه سيعتبر مشككا فى سلطة الشعب، هكذا يقولون، وفى يوم ثان ذهب الى جمارك الموانئ البحرية للافراج عن سيارته فقيل له ان هناك كثير من السيارات ولكنها فى الحضيرة الجمركية وعليك ان تراجع بعد اسبوع او اثنين، يحاول ان ينصرف فيستوقفه أحدهم سائلا، ما هو نوع السيارة ؟ وقبل ان يرد، يقول له اذا كانت من نوع مرسيدس او بى ام دبليو فلا تراجعنا لأنها ستصادر. .

يتساءل باستغراب، وماذا عن المرسيدسات والبى ام دبليوات التى اراها تمر على الطرقات ؟

يرد احدهم بنرفزة، أتريد ان تحاسبنا ؟

يفكر، أيكون السؤال ايضا تشكيك فى سلطة الشعب ؟ يخرج منكس الرأس، وفى مكان آخر ذهب يراجع لأنه يود اخراج حاوية بها بعض حاجيات الاسرة

يسأله الموظف، ماذا تريد دون ان يقول له تفضل ولا سمح له بالجلوس، يلاحظ ان المكتب من النوع الفاخر ولكن التراب والورق الممزرق بلا عد ولا حساب، وفى الزاوية راديو يصدح بصوت عال بينما فى الجانب الآخر جهاز مرئى كبير على طاولة ذات ارجل نحاسية بعجلات عليه كدس من اوراق الكربون القديمة وفى الجهة الاخرى حذاء عسكرى وملابس خضراء مكوّمة وفى السقف ثلاث لمبات مستطيلة تضئ واحدة منها فقط، تذكر المقولة التى تحث الناس على عدم استغلال بعضهم البعض، البيت يخدمه اهله، وهكذا المكتب ولكنهم لا يخدمون!!

يقول بصوت هادئ، لدى ملابس وادوات للاسرة فى حاوية جاءت على الباخرة.....

الجالس على المكتب باستهزاء، بنفايات اوربا أليس كذلك ؟

الشاب بتوتر، لقد جئت من مصر وليس من اوربا !

الموظف،بنرفزة، اذن هى نفايات كامب ديفيد ؟

يا سيدى يرد الشاب، لا هى نفايات اوربا ولا كامب ديفيد انما هى ملابس وادوات اسرة عادت الى بلادها، وعلى اى حال افتحوها لتعرفوا ما فيها..

الجالس على المكتب وهو يحرك كرسيه جيئة وذهابا، يفتح ملف امامه، ينظر قليلا ثم يقول، الباخرة لم تصل بعد..

الشاب، هل تعرفون متى تصل ؟

راجع بعد عشرة ايام او اكثر..

يعود الى البيت مهموما، السيارة ممنوعه اذا كانت من النوع الذى ذكروه ولكنه يرى هذه الانواع تمرح على الطرقات، والحاوية نفايات اوربا او كامب ديفيد وهو يسمع الكثير من اولئك الذين يزورونهم، فلان احضر سيارة نوع مرسيدس آخر موديل ولم يدفع قرشا واحدا لأن قريبه فى اللجنة الثورية (.....) وفلان أحضر اثاثا للفيلا كاملا من ايطاليا ولم يكلف نفسه حتى عناء الذهاب الى الميناء لأن قريبه ضابط وصديقه عضو فى مؤتمر (....) وفلان طرد فلان من المزرعة الفلانية واعطاها لفلان لأنه من قبيلته، وفلان اصبح عضو لجنة شعبية لأن قبيلته كبيرة، وعلان اصبح كذا لأنه طويل اللسان ويهدد الآخرين بانهم ضد السلطة الشعبية.. كل هذا كان يطرق اذنيه ويؤرق اعصابه وكأنه مطارق من نار فى فؤاده..

لقد كان غير راض عن والده وموقفه من البلاد وهو ضد اولئك الذين يمارسون العمل السياسى ويحاربون بلادهم من الخارج –ولكنه يرى الآن ان هناك من يحاربونها من الداخل، فهل يكتب كل هذا الى قيادة بلاده ؟ وهل سيصلهم ما يكتب ؟ وهل يبقى ام يحرج مرة ثانية ابتعادا بنفسه عن الفساد، واذا خرج ماذا سيفعل ؟ فهو لا يمكن ان يكون ضد بلاده وفى النهاية فان هذه الممارسات ليست هى حقيقة الثورة، ماذا يفعل ؟ هل يبحث عن واسطة واذا وجدت الواسطة وانهى اجراءاته فهل هذا كافيا ؟ قالوا له انك يمكن ان تذهب الى فلان فى اللجنة كذا او فلان فى مؤتمر كذا وهؤلاء من قبيلتك، او ان تدفع رشوة فى كذا وكذا.. لكنه يرى ان هذا ليس من سمات المجتمع الجماهيرى المتوقع والمأمول ؟؟

أحدهم يضحك، مسكين لا يعرف البلاد، خلّوه تائه..

فكر، لابد له ان يعمل شئ ما، شئ مختلف تماما، فلا الواسطة ولا القبيلة او الرشوة يمكن ان ترضيه لأنه لا يريد، ويكفى ما ارتكبه والده،

يحاول ان يحدّث امه فى أمر فكر فيه ولكنها سوف تبكى وتتأوه وتندب حظها لأن ابنها الوحيد يريد ان يتركها، لقد قرر ان يلتحق بالعمل الفدائى تكفيرا عن سيئات والده والى ان يتحقق العمل الجماهيرى الحقيقى الطاهر فى بلاده، سوف يتدرب على استخدام السلاح وينتظم فى صفوف المناضلين من اجل الحرية وشرف الامة العربية، ذلك العمل الذى لا يحتاج الى واسطة او قبيلة او رشوة، ولكن ما العمل وكيف ؟ والدته واخواته وبيته، لا ينام تلك الليلة مفكرا فيما يجب ان يعمل ومع تباشير الصباح كان قد حزم وقرر ولن يتراجع اطلاقا، بقى فقط شئ واحد، هل يخبر والدته واذا اعترضت فماذا يعمل ؟ واذا لم يخبرها وقد يستشهد هناك فى جنوب لبنان او على ارض فلسطين فهل يكون بذلك قد اغضبها وهل فى التضحية من اجل الشرف والكرامة اغضاب للوالدين ؟ انه يستطيع ان يذهب ثم يكتب من هناك لوالدته ويكون ذلك امر واقع واذا بكت لعدة ايام فانها لابد ستفخر بان ابنها ترك كل شئ ليحمل البندقية التى اصبح حملها صعبا على الكثير من العرب رغم كل الهزائم والاهانات، هؤلاء الذين عبدوا النفط ورنوا بانظارهم الى البيت الابيض فى واشنطون واستخدموا الواسطة والقبيلة والرشوة وسوف يقبلون اشياء اخرى، ألم يقل العقيد القذافى ان اخراج الثورة الفلسطينية من لبنان يساوى اخراجنا من حجرات زوجاتنا ؟ فلماذا لا نعود الى بيروت ؟ لماذا لا يعود العرب الى بيروت وجنوب لبنان بل الى فلسطين ؟

قرر ان لا يبلغ امه بل سيكتب اليها من هناك، وعندما حزم امره تذكر خديجة تلك الفتاة التى التقاها بعد عودته مباشرة وهى ابنه احد اعمامه وقد حدثتها والدته بانه مهتم بها وانه هو نفسه اظهر لها المودّة وتقرب منها وربما تكون قد احست بانه يرغب الاقتران بها خصوصا ان العلاقة بين اثنين فى المجتمع الليبى لا تكون مشروعة الا بالزواج، لكنه الآن وقد غير رأيه فهل يجوز له ان يتركها دون كلمة طيبة وتوديع لائق فهى لا يجب

ان ترتبط به او تنتظره، وفى داخله تساءل، ما قيمة الزواج ولماذا ؟ أهو لأنجاب الاطفال ؟ وما فائدة انجاب الاطفال والوطن العربى ممزق وملايين الاطفال اما لاجئون يعيشون على فتاة خبز الامم المتحدة او يتضورون جوعا ينتظرون الموت البطئ، واذا كان زواجا للتسلية واثبات الرجولة فانه يرى ان الرجل هو الذى يحمل السلاح ويقرر الموت فى سبيل الشرف وليس ذلك الذى يعاشر المرأة عدة مرات فى الليلة الواحدة ولو كان كذلك لأصبح اصحاب التفط هم اقوى الرجال فى العالم لأنهم لا يفكرون الا فى ذلك وفيما يملأ كروشهم البارزة دوما . .

صمم ان يصارح خديجة برأيه لأنه لم يعد صالحا لأن يكون زوجا، ولكنها اذا ما عرفت فقد تخبر امه وبالتالى سوف تكون عقبة كأداء فى طريقه، لا، لابد له ان يتخذ كل الترتيبات قبل ابلاغها وبالتالى سوف لن تجد الوقت الكافى لأن تبلغ والدته، فكر فى تذكرة السفر ووجهته، لابأس انه يستطيع السفر الى بيروت عن طريق اثينا او الى دمشق ومنها الى بيروت، وراح يشترى تذكرة السفر فقيل له لابد من التأشيرة وجواز السفر، هذا بعد ان انتظر اكثر من ساعتين لكى يتمكن من التحدث الى أحد الموظفين لأن مكاتب الخطوط الليبية شبيهة تماما بسوق الرويسات ايام زمان لا يستطيع القادم اليها ان يعرف من القادم او الخارج ولا يميّز بين الاصوات المتداخلة بل قد لا يضمن ان يخرج وكامل ملابسه على جسده!!

يفكر فى الامر، جواز السفر والتاشيرة ؟ الجواز محجوز لأن التعليمات تقضى بحجز جواز سفر القادم من مصر لمدة ما، فكيف يعمل ؟ ايكون النضال من اجل الحرية والوطن والامة فى حاجة الى واسطة ايضا ؟ هل يحتاج من يطلب الموت الى اذن وواسطة وتاشيرة ؟!!

عندما ذهب الى مبنى الجوازات ذلك المبنى الذى تشبه شبابيكه السجن ويزدحم الناس امام تلك الشبابيك الحديدية ينتظرون الضابط الذى يتحدث اليهم من وراء تلك القضبان الحديدية وكأنه يخشى ان يقبضوا على رقبته،

قيل له انك لا يمكن ان تحصل على الجواز الا بعد مدة كذا، ولأن جوازك محجوز فلا يمكن اصدار جواز جديد إلا بعد مدة !!

سأل كم تكون المدة ؟

قد تكون شهرا او اثنين او اكثر . .

يسأل وماذا اعمل ؟

انتظر والصبر طيب . .

لا استطيع فانا ارغب فى الالتحاق بالعمل الفدائى . .

بهزء، العمل الفدائى ؟ وعلم ؟

لأننى ارغب فى القتال ضد اليهود . .

قال من ؟ ينظر اليه الضابط ويظن انه مخبول، قتال اليهود !

نعم قتال اليهود، ألم تسمعوا بصبرا وشاتيلا ؟؟

ينظر اليه الضابط نظرة استغراب، ثم يقول، هه حررتها والله !

يا سيدى ليس المهم ما تقول ولكن متى احصل على الجواز ؟

يتدافع الناس من خلفه وينهره احدهم، كفى اسئلة وخلصّنا الدنيا حر . .

يلتفت الشاب راجيا امهاله دقيقة او اثنتين . .

يسأل مرة اخرى اذا لم يكن من الممكن الحصول على الجواز فماذا اعمل انا لابد ان اسافر ؟

الضابط، ياسيدى ما دام تريد تحرير فلسطين قدم طلب وثيقة سفر، يضحك . .

الشاب بانكسار، ومتى احصل عليها ؟

الضابط بنرفزة، لا اعرف، هات شهادة ميلاد وشهادة حسن سلوك وثلاث صور 4×6 وعبئ نموذج طلب وثيقه . .

وقبل ان يعيد السؤال يدفعه اولئك الذين يتزاحمون امام النافذة، ينظر باستغراب

وبنصرف مفكرا، وثيقة، شهادة ميلاد، صور، مدة طويله وهو لا يستطيع الانتظار، يتمتم، هل اتصل بمكتب المنظمة ؟ واذا اتصلت ترى بمن ؟ انهم عديد من المنظمات، يعود ادراجه، وتذكر انه يعرف صديق يعمل بادارة الجوازات وقد يستطيع مساعدته فهذه ليست واسطة لأنه يريد ان يموت، أفى الموت واسطة ؟ يتجه الى بيت الصديق ولم يدرك انه لابد ان يكون فى العمل، يسأل اهله ويعرف انه لن يجده إلا بعد الظهر، يعود الى بيته فيجد امه وقد داخلها نوعا من الخوف والانزعاج، تسأله اين كنت كل هذه المدة ؟

يرد، كنت ازور بعض الاصدقاء، يتناول غذاءه وبهدوء يدخل الحجرة ولكن الام تلحق به لتسأله عن الاثاث والسيارة واشياء اخرى ؟؟

ودون ان ينظر فى عينيها مباشرة، اجاب قريبا ان شاء الله لأن هناك اجراءات يجب اتمامها ولكنها تقترب منه لتسأله، اراك مهموما شارد البال فهل هناك مشاكل ؟

يجيب وهو مغمض العينين، لا، لاشئ، اود ان انام قليلا، تخرج دون ان تضيف شيئا لكنها تتوقف عند الباب لتقول، جاءت خديجه هذا الصباح . .

اختلج صدره عند سماع الاسم ولكنه لم يرد، وفى داخله قال، مسكينه لا تفكر الا فى يومها وقصة الزواج والبيت والاولاد كأمها وأمى، يغمض عينيه بعد ان كان قد فتحهما فجأة وينام قليلا وبعد فترة ينهض ليخرج من البيت دون ان يقول الى اين، يتجه الى بيت صديقه الذى يعمل

بالجوازات، يطرق الباب، يفتح له فيدخل ليجلس مع ذلك الصديق وبعد تناول الشاى سأله صديقه عن الوالدة والاسرة، فرد ببرود كلهم بخير ويتوقف عن الكلام. .

يلاحظ الصديق حيرته، فيسأله، خيرا ؟

يندفع الشاب مباشرة فى الكلام عن غرض زيارته ويقول انه لم يعد يطيق الانتظار وانه لابد ان يسافر فى اسرع وقت ممكن. .

باستغراب يسأله الصديق، أهو هروب من الوطن ولماذا جئت اصلا باسرتك منذ فترة وجيزة ؟

يقول، ابدا فلقد رجعت برغبتى وكنت سعيدا برجوعى وارجاع والدتى لكننى ارغب فى الالتحاق بصفوف الفدائيين، وطفق يعدد الاسباب بينما كان صديقه ينظر اليه مندهشا وغير مصدق، فسأله، كيف طرأت لك هذه الفكرة وهل حدث ان استخدمت سلاحا؟

اجاب، سوف اتدرب على السلاح وسوف اقاتل اليهود فى جنوب لبنان وفى فلسطين مع المجاهدين هناك. .

ينظر اليه الصديق متأسفا، أأنت بكامل قواك العقلية ؟

يرد، نعم والله ولقد حزمت امرى وتوكلت على الله. .

وماذا ستضيف ؟ ان الفسطينيين انفسهم تركوا جنوب لبنان او هم اجبروا على ذلك. . ؟

وقبل ان يرد يضيف صديقه، ثم ماذا ؟ قد تموت او كما تقول تستشهد فلا كيان اسرائيل هدم ولا ايقضت العرب ولا اخفت الحكام وها انت ترى الآن بيريز وهو يزور بلد عربى هو المغرب بدعوة رسمية ويصدر بيانا رسميا عن زيارته ومحادثاته مع الملك الحسن الثانى ولم يتحرك احد !!

الشاب الامر ليس كذلك والامة العربية ليست هى الحكام او الرؤساء العرب. . الصديق، نحن نحارب ونهزم ويموت منا الكثير من الشباب والشابات منذ سنة 1948م وحتى الآن وسوف لن يغير شيئا ذهابك من عدمه. .

الشاب، لقد اتخذت قرارى وما احتاجه منك هو مساعدتى فى الحصول على جواز او وثيقة سفر فقط. .

يزم الصديق شفتيه باستغراب، لكنه يعد بالمساعدة قائلا، عليك احضار الشهادات وسوف اعمل جهدى. .

يخرج شاكرا صديقه على امل اللقاء فى يوم الغد وكله أمل فى الحصول على مستند السفر. .

يهرّول لعدة ايام بين البلدية ومختار المحلة والجوازات، وكلها مشاكل وتعبئة نماذج واوراق ولكنه كان سعيدا لأنه يرى ان ذلك انما هو اختبار لعزيمته وتصميمه، يحصل على الوثيقة والتأشيرة ويعد حقيبة صغيرة خفيفة حرص على ان يخفيها قرب مدخل البيت ولم يودّع احدا، صمم فقط على ان يقول لخديجه انه مسافر فى رحلة طويلة قد لا يأتى بعدها، زارها فى البيت وقد اخبرها بما انتوى فتوسّلت اليه ان لا يفعل لكنه يقطع فى الامر قائلا بانه ما جاء ليستمع الى نصائح، تبكى فيرجوها ان لا تستمر فى البكاء لأنه لولا معزتها ومكانتها فى قلبه لما جاء لوداعها وهو لم يودّع حتى امه، يتمنى لها التوفيق فى حياتها دون ان يمس يدها المرتعشة التى امتدت اليه فلا يمكن لعاطفة ان تؤثر على قراره، يعود الى البيت ولكنه لا يدخل بل يتناول تلك الحقيبة الصغيرة بيد مرتعشة فقد خطر بباله انه لا احد يمكن ان يهتم بوالدته واخواته غيره، فكر فى ان يترك رسالة تحت الباب ثم ادرك ان خديجة سوف تخبرهم، يجذب الحقيبة من مكانها ويتجه الى الطريق العام ليوقف سيارة اجرة،

يسأله السائق دون ان يفتح الباب، الى اين ؟

فيقول، الى المطار . .

يرد السائق ببرود، خمس دينارات . .

يفتح الباب الخلفى ولكن السائق يطلب منه ان يجلس بجانبه قائلا، تعال من قدّام، يقفل الباب الخلفى ويفتح الامامى وقبل ان يقفله ينهره السائق قائلا، لا تخبط الباب بالقوة . .

ينظر متسائلا فى داخله، لماذا كل هذا الاشتطاط والعراك مع الريح؟ ماذا حدث لهؤلاء الناس ؟

يصعد الى الطائرة المتجهة الى دمشق وكان هناك عدد من الركاب، يسمع الحوار التالى يدور بين ركاب يجلسون امامه . .

الاول، يا لطيف ما حصلت على التأشيرة الا بشق الانفس . .

الثانى، هذى بسيطه وشوف حالة تحويل العمله !

الاول، يا عليك فلوس هي، كلها مائة دينار !!

الثانى، ومن يسافر بالمائة دينار ؟ السوق السوداء موجوده . .

الاول، ولكن الدولار ارتفع كثيرا فى تلك السوق . .

الثانى، وهذا لابد منه المهم نلقى الدولار ما هى فلوس قاعده فى المصرف . .

الاول، وماذا عن السوق السوداء فى دمشق ؟

الثانى، قالوا هناك تشديد، ولكن لا يهم سوف نجد سوق سوداء لأن الشوام شاطرين . .

الاول، والذهب ؟

الثانى، موجود وكذلك الملابس وغيرها . .

الاول، أهى زياره ونياره، فانت لا تستطيع ان تتزوج فى ليبيا بلا تهريب وسوق سوداء . .

يستمع الشاب باستغراب وهو يفكّر فى نوع هذا الزواج الذى يبدأ بالتهريب والتزوير، يفكّر فى مهمته، كيف يلتحق بالفدائيين ويتدرب على السلاح ويقاتل، ترتفع اصوات الذين يتناقشون على ثمن الذهب والسوق السوداء فينهض متبرما لينتقل الى مقعد آخر . .

ومن هناك من مطار دمشق وهناك ايضا لا تستطيع ان تنهى اجراءاتك الا بدفع الرشاوى، يفكّر، لابد ان بعض هؤلاء العرب قد فسدوا او على الاقل هؤلاء الذين يعملون مع الحكومات العربية ويظهر ان التغيير السياسى يخلق تغيير اجتماعى مدّوى وغالبا ما يكون الى الاسوأ !! يسأل عن طريقة السفر الى بيروت بينما يتجه الآخرون الى الفندق القريب من سوق الحميدية ليكونوا قريبين من مكان البيع والشراء، قيل له انه يستطيع ان يركب اى من السيارات التى تذهب الى بيروت وهى كثيرة، لم يسأل عن الاجرة لأنه لم يعد فى حاجة الى النقود، هناك لا قيمة إلا للبندقية، يتجه كل الى وجهته، طريق الجهاد وطريق الكسب، طريق العزّة وطريق الذل، طريق الحق وطريق الباطل الفانى، لقد اختار طريقه وهو فخورا بذلك وليذهب هؤلاء مع ذهبهم ونفطهم وجشعهم الى الجحيم . .

يصل بيروت ويسأل عن مخيم صبرا، يذهب الى هناك سيرا على الاقدام وهو لا يحمل الا حقيبة صغيرة وقلب مملوء بالايمان وعزيمة لا تفّل، وما اجمل ان يقرر الانسان التضحية وقلبه مملوء بالايمان، يفاجأ بالقتال الدائر حول المخيم وهو لا يعرف حتى كيف يختفى من القنابل والمتفجرات، يجلس قرب احد المبانى لفترة من الوقت ويحدث ان حراس المبانى القريبة قد رأوه واشتبهوا فى وضعه فتدفقوا شاهرين رشاشاتهم، كانت الرشاشات

مصوبة الى صدره والموت هناك دائما يرفرف على الرؤوس، كان حائرا، كيف يمكن ان يموت قبل ان يشترك فى القتال ضد اليهود بل لماذا يقتل الاخ اخاه ؟؟ ومن هؤلاء ؟ يسألونه من يكون ولماذا هو فى هذا المكان وماذا يريد ثم ماذا فى الحقيبة لعلها متفجرات ؟

لا يعرف بماذا يجيب ولا يعرف من يكونوا، من حركة امل ام من تنظيم فلسطينى او ميليشيا اخرى، يرد متلعثما بكلمات متقطعة وهو لا يعلم ماذا سيكون مصيره، يقول انا من ليبيا ولقد جئت للالتحاق بالفدائيين الفلسطينيين، يتوقف عن الكلام وقد احس برعشة تجرى فى جسده، انه لا يخاف الموت ولكنه يجب ان يموت وهو يقاتل اليهود..

يتبادلون نظرات الاستغراب، كيف يكون هذا ؟

يسأله احدهم، ولماذا تريد الالتحاق بالفدائيين الفلسطينيين ؟

لأننى اود ان اقاتل فى صفوف هؤلاء المناضلين مثل بقية الليبيين الذين جاؤا منذ مدة الى هنا ومات بعضهم من أجل فلسطين..

يتبادلون الحديث الهامس ولابد انه فعلا جاء من اجل ذلك وإلا ما كان يمكن ان يقول انه يرغب فى الإلتحاق بصفوف الفدائيين لأنه لا يعرف من نكون..

يأخذونه معهم الى المعسكرات ويخضع لتحقيقات متوالية وفى النهاية يلحق بمعسكر للتدريب، تمر الايام وهو يتقدم فى تدريباته سعيدا بما يحقق من تقدم لأن ذلك سيقّرب فرصة مشاركته، يفكر فى ان يكتب الى والدته لكنه يتراجع عن الفكرة اذ لا وقت لديه وكذلك فان معسكر التدريب بعيد عن المدينة، فى بادئ الامر يحس بان اوصاله تكاد تتقطع ولا ينام الا بصعوبة رغم حاجته للنوم، اوجاع فى كل مكان من جسده، فخذيه يؤلمانه بسبب الحركة الدائمة التى لم يعتدها ورويدا رويدا يتعود على التدريب الشاق وتشتد عضلات الجسم بعد ان كانت تتقلص، تدريبات شاقة وكثيرة،

اللياقة البدنية اولا، القفز والتدحرج والتسلق ثم استعمال الكلاشينكوف تفكيكا وتركيبا ثم عدد من انواع المسدسات والقنابل اليدوية ثم ال أر بى ج ثم المشاركة فى عمليات محدودة جدا وفى نطاق ضيق، بعدئذ الانتهاء من التدريب والمشاركة الفعلية فى القتال، وكم كان رائعا ذلك اليوم الذى كلّف فيه باول عملية فدائية داخل الاراض المحتلة مع ثلاثة من رفاقه، تسللوا ليلا وكان عليهم ان يقطعوا مسافة طويلة سيرا على الاقدام ثم يهاجموا مستعمرة يهودية مع انبلاج ضوء الفجر ردا على عدوان اسرائيلى على قرى الحدود اللبنانية فى الجنوب، وهكذا حدث ولقد احس بسعادة غامرة، فهو يشارك فى القتال من اجل الامة العربية، كل الامة العربية وبرغم انه لا يكره اليهود كيهود ولا يحب القتل فقط من اجل القتل إلا انه لا يمكن ان ينسى مذبحة دير ياسين وكفر قاسم ومدرسة بحر البقر وصبرا وشاتيلا الخ نعم ان هذه الاحداث والمذابح التى قامت بها اسرائيل جرح دام لا يمكن ان يندمل من الجسم العربى والى ان تتحرر فلسطين، صحيح انه تأثر كثيرا عندما جرح احد رفاقه فى تلك المعركة وكان عليه ان ينقله فقد كانت التعليمات هكذا، تبدأ المعركة وكل اثنين يحمى احدهما ظهر الآخر واذا قتل او جرح احدهما فلابد ان ينقله الثانى، ينظر الى الدم الذى يسيل من جرح رفيقه على كتفه، يلمسه بيمناه، تتلطخ اليد بالدم الاحمر القانى، ينظر الى يده، انه دم عربى ينزف من اجل الحق والحرية ولا قيمة للدماء المحقونة..

يعود الى معسكره ويقرر ان يكتب الى والدته، يود ان يقول لها كل شئ عن التدريب والقتال والجراح والموت ولكن ذلك سيفزعها، لا، انه سيقول لها انه صار رجلا بمعنى الكلمة وانه يقاتل من اجل العزة والكرامة، والاعمار بيد الله، فاذا عاش فهو رجل اما اذا مات فهو شهيد، يكتب اليها واصفا حياته فى معسكرات الفدائيين وكيف انه سعيد عندما يجلس بين الرجال الذين يخططون لعملية فدائية يشاركهم الرأى وسعيد عندما يتناول

تلك الوجبة البسيطة المتقشفة، وسعيد عندما يتوسّد بندقيته الكلاشينكوف ويحلم بغد مليء بالعمل، العمل والتضحية وربما الاستشهاد، ان عرق الفدائى يساوى كل بترول العرب يا اماه لقد رميت اثواب الذل خلف ظهرى ونزعت رجلاى من عفن النفط، هكذا قال لوالدته، وقبل ان يبعث الرسالة فكر فيما يكون شعور والدته واخواته اتراهن سيبكين كالعادة ؟ ام سيفرحن ويفخرن؟ ذهب ليضع الرسالة فى صندوق البريد متذكرا القول المأثور، اللهم اعطنى حياة عريضة ولا تعطنى حياة طويلة، واطلبوا الموت توهب لكم الحياة، هنا نحن فعلا احياء أما اولئك الذين يبذّرون ملايين الدولارات فى نيس وكان وسيامى وغيرها فهم اموات، اموات الضمائر واموات النفوس، لم يقل لوالدته فى تلك الرسالة اين هو او كيف ترد على رسالته لأنه بلا عنوان، بل ان عنوانه بندقية واسمه شهيد، هكذا احس براحة لا مثيل لها، فاذا كان هؤلاء الحكام العرب قد يئسوا او باعوا او خانوا وتمرغوا فى العار فان اقل ما يجب ان نؤكده للعالم ان الامة العربية وان الشعب العربى قادر على القتال والتضحية والموت وان القضية لن تموت ولن تنتهى، تلقت الام رسالة ابنها وهى اول رسالة تتلقاها فى حياتها من اى جهة ناهيك عن الابن الذى اختفى فجأة دون ان تعرف لذلك سببا فهو لم يخبرها بشئ ولم تحس بانه يريد ان يتركها، اختفى فجأة وقد اختلفت الروايات والاحاديث فمن قائل انه تبع طريق اباه وما رجع الا لأنه اراد التخلص من اخواته وامه ومن قائل انه صدم واصيب بلوثة حتى انه فى الايام الاخيرة كان يتحدث عن فلسطين والقتال ضد اليهود والفداء وهو لا يعرف ان القضية ربما بيعت وانتهت كما يشاع، ومن يهزأ بهم فيقول، ايه، لا تخافوا فقد ذهب ليحرر فلسطين وربما تسمعون انه يقود النضال الفسطينى كله!! وانه فى آخر الزمن ظهر بطل مناضل فى عائلة سى عبدالله، وها قد تلقت منه رسالة تفض الظرف احدى بناتها، تنظر مباشرة الى الطرف الاخير من الورقة لتقع عينيها على اسم اخيها، تقفز

مهلّلة، رسالة من اخى، تنهمر الدموع من عينى الام دون ان تنبس بكلمة فلقد مرت عليها اياما قاسيات وسمعت كثيرا من الاشاعات، تقرأ الاخت الرسالة وتعيد قراءتها والام لا تتكلم ولا تتحرك ولم تكفكف دموعها، وبعد صمت طويل وقد خيّل اليهم انها اصيبت بصم مفاجئ نتيجة الصدمة، قالت حفضك الله يا ابنى، لله ما اراد، ولا راد لمشيئته . .

وهناك كان ادريس قد قضى يومين فى الراحة بعد تلك المعركة، وقررت القيادة ان تبعث بعدد من الفدائيين لخوض معركة اخرى، هذه المرة ستكون فى مواجهة دورية اسرائيلية وقد بدأت اسرائيل تسّير دوريات مدّرعة، ولم يكن الشاب ضمن هذه المجموعة لكنه اصّر على ان يضّم اليها، قالوا له انك تحتاج الى مزيد من الراحة وان هناك الكثير من المعارك فى الايام القادمة اذ اننا لن نترك العدو يهدأ او يهنأ او يستقر لكنه اصّر على ان يكون ضمن هذه المجموعة فى معركة الغد، وتحت ألحاحه يوافق رئيس المجموعة على اشراكه فى العملية وتقرر ان يتحركوا مع هبوط الظلام على ان يعودوا قبيل الفجر، بعد الغذاء جلس ينظف سلاحه ممنيا النفس بعمل بطولى كبير وربما الاستشهاد ويخطر بباله ان يكتب رسالة الى والدته، ودار بذهنه انها قد تكون الرسالة الاخيرة، فكر قليلا، ان الموت حق علينا والاستشهاد شرف لنا، انه لا يخشى الموت، وما شارك فى هذا العمل إلا اقتناعا لأنه يمثل ظاهرة الرفض الحقيقى فى امة تكاد ان تلفظ انفاسها تحت سيطرة حكام فقدوا الضمير والاحساس وباعوا كل شئ . .

يكتب الرسالة . . بسم الله الرحمن الرحيم، ،

والدتى العزيزة، اكتب اليك هذه الرسالة وانا استعد لمعركة بطولية قد استشهد فيها، عفوا يا والدتى ما اردت بهذا ان اجعلك تتوجّعين وتبكين، ومعذرة اننى غادرت دون ان اقول لك ماذا انتوى لكننى رأيت ان ما انتويته هو العلاج الوحيد لأمراض انتشرت وتفشّت، واحوال تدنّت وانحدرت، اننى يا والدتى لا اهتم باحوال الناس الذين فقدوا العزيمة واسترخوا فى

ظل النفط، ولا اخاف الموت فهى حق على كل نفس انما ما اخافه هو ان تخبأ جذوة الثورة، ولهذا فلابد من التضحية ولابد ان يكون زيت فتيلتها دماء زكية، كنت اتمنى يا والدتى ان اكون بجانبك لو كانت احوال اخوتنا بخير وقضية امتنا قد حلت وحقوق مواطنينا قد استعيدت، وكان بودى ان احضر زواج كل واحدة من اخواتى لأفرح معك ومعهن ولكن ما قيمة الفرح وامتنا فى حزن دائم وما قيمة الحياة واعراضنا تنتهك، اننى يا والدتى عندما اودعك بهذه الكلمات لأرجو ان تسامحينى وان تكون دعواتك معى فى كل صلاة، اننى اتمنى لبلادى كل خير وتقدم كما اتمنى لأمتى العربية التقدم والاستقرار والكرامة واتمنى لتجربتنا النجاح وآمل ان يكون المجتمع الجماهيرى مجتمع خير وتواد وتعاون وسعادة ورفاه، واتمنى على اولئك الذين تشبّثوا بالقبلية والاقليمية ان يقتلعوها من جذورها وان يرموا بها وراء ظهورهم لأنها ليست من المجتمع الجماهيرى المأمول ولأنها القيد الذى يكبل الايدى والارجل واللثام الذى يعمى البصائر، واتمنى على اولئك الذين اندفعوا وراء الكسب غير المشروع والوساطة والمحسوبية ان يدركوا ان تلك العادات السيئة مدمرة وان حسابها عسير فى الدنيا والآخرة، واتمنى على الاخ العقيد ان لا يترك تلك التجربة الرائدة للعبث والافساد، ذلك ان التجربة تغنيها العقول النيرة المتفتحة والافكار النظيفة والضمائر الحية الصادقة المعطاءة، ، والسلام. . ابنك ادريس. .

ومع هبوط الظلام تبدأ المجموعة فى التحرك وما يكاد ينتصف الليل حتى تصل الى اهدافها وتشتبك مع دورية اسرائيلية فى معركة ضارية تستخدم فيها جميع انواع الاسلحة التقليدية وكان الشاب يعتلى ربوة مع احد رفاقه بينما كان رفيقيه الآخرين على الميمنة يطلقون النار بغزارة وتصويب محكم، كانت الربوة هدفا لقصف مدفعى غزير، استمرت المعركة زهاء خمسة ساعات دمروا خلالها عددا من الدبابات الاسرائيلية بمن فيها وكان من المقرر الانسحاب بعد المعركة مباشرة حيث بدأت خيوط الشمس تنتشر

على القمم، وكانت اغلب ذخائرهم قد نفذت ولكن ادريس وقد تحسس حزامه فوجد ان هناك قنبلة يدوية ماتزال تتدلى وتراى له صيدا ثمينا، انها مجنزرة تحمل عددا من الجنود تهيأ وسحب سباط تأمين القنبلة ليقذف بها وسط العربة وكان عليه ان ينهض من على الارض قليلا ليتمكن من قذف القنبلة مباشرة فى وسط العربة لكنه ما يكاد ينهض حتى تخترق صدره اطلاقة من الجانب الايسر فخّر على الارض واضعا يده اليمنى على صدره، يسعفه رفاقه، يحملونه لبعض الوقت لكنه يرجوهم ان يضعوه قرب تلك الربوة، يرفضون فى البداية لكنه يلح، يقف ثلاثهم ليضعوا الشاب على الارض تسبقه دماء غزيرة يمد يده اليمنى وكانت ملطخة بالدماء ليخرج المظروف ويرجوهم ان يضعوه فى اول صندوق بريد لأنه مرسل الى والدته فى بنغازى تظهر بصمة اصابعه حمراء على الظرف، يتنهد وتندفع الدماء غزيرة من فمه، يصاب رفاقه برجفة حزن لكنهم يحملونه وينحدروا عبر سفح الجبل مسرعين فلا مكان للحزن، ولكن ادريس لابد ان يدفن فى مراسم تليق بالابطال، انه عنوان الوحدة العربية والمصير العربى والدم العربى، انه رمز لأمة لا يمكن ان تموت ولوحدة لابد ان تتحقق، ها قد سال الدم العربى الليبى على ربى الجنوب اللبنانى كما كان قد سال فى السابق فى ارض فلسطين، الدم الزكى الشاب يسيل على ربى لبنان كما سال الكثير منه على الارض الفلسطينية سنة 1948م وكما سال الدم العربى الفلسطينى والمصرى والسورى وغيره فى ارض ليبيا سنة 1916م وبعدها وكما سال الدم العربى من كل ارض عربية فى ارض الجزائر وعلى جبال اوراس، سال الدم العربى ايمانا وتطوّعا من اجل القضية العربية والامة العربية والوحدة العربية فى اليمن، هذه فلسطين وذلك لبنان وتلك الجزائر وهذه اليمن وذلك العراق وتلك ليبيا، وهنا سوريا وهنالك المغرب وتلك الجزيرة العربية، كلها ارض عربية وكله دم عربى زكى. .

عاد خالد الى بيته وان لم يكن مهموما فقد كان حائرا وكأنما هو سبب المشكلة اذ ما كان يخطر على باله ان الامور ستتطور على هذا النحو وهو لولا الاحداث التى طرأت على البلاد ما فكر فى زيارتهم ولقد علقت بذاكرته حالة صديقه الحاج وتلك الدموع الغزيرة التى كانت تغالب جفون فوزية تبلل الاهداب الطويلة التى ود لو امكنه ان يجففها، واسعده ان تلتقيه ابنته الصغيرة ضاحكة مرحبة مما انساه هموم اولئك الاصدقاء مؤقتا، ولكن ما لبث ان عاد اليه الوجوم فلاحظت زوجته ذلك وسألته، أهنالك ما يزعجك ؟ وقد فكرت فى الايام التى مرت والعدوان الامريكى على البلاد، وهكذا اضافت قائلة، لقد اتصلنا اليوم هاتفيا بليبيا والاحوال هناك هادئة باستثناء مشاكل شهر رمضان المبارك وهى فى العادة كثيرة، قالوا ان بعض الخضراوات غير متوفرة، وحاول ان يجاملها فاجاب، هذه ليست المرة الاولى ففى رمضان دائما تكثر الطلبات واذا ما اختفت بعض الكماليات فسرعان ما تتوفر فى الاسواق، والواقع اننى افكر فى مشكلة اخرى يواجهها صديق . .

وترد الزوجة بحدّة، اى صديق ومنذ متى كان لنا خارج بلادنا اصدقاء ؟ ألم تقل فى مرات سابقة ان هؤلاء الذين يقيمون خارج البلاد لا يؤتمنون على شئ ؟

يرد، الواقع اننى قلت ذلك عن اناس اعرفهم ولكن هناك غيرهم وكان الاتصال بهم ضرورى اثناء تلك الازمة وهذا الصديق من بنغازى وقد جاء مع ابنته التى اراد لها ان تلحق بزوجها ولكن الايام جاءت بما لا يشتهى ويبدو انه قدرى ان اواجه المشاكل حتى التى لا تخصنى مع الناس . .

أحد اولاده، وبم انها لا تخصك فلماذا تفكر فيها ؟

نظر الى ابنه نظرة ود وقد غير الموضوع ليسأله عن نتيجة الامتحانات، فرد الشاب بسرعة، لم تظهر بعد ولكن لا تنسى وعدك، آه الهدية لا

تنساها، هذه المرة دراجة نارية نوع سوزوكى لقد رأيت واحدة يوم الامس وسألت عن ثمنها، ودون ان ينظر فى وجهه مباشرة، قال ان شاء الله، المهم تنجح، وربما كانت فوزية قد نامت على دموعها المدرارة نادبة ذلك الحظ العاثر الذى اوقعها فى ذمة هذا الرجل وابعدها عن تراب الوطن كذلك فان الحاج وقد صدح معبرا عن آلامه بذلك الصوت الجهورى ربما يكون الآن قد ادى صلاته وجلس يتأمل الوضع وما يمكن ان يكون عليه غده، تابع نشرات الاخبار فاذا هى شذرات من هنا وهناك وكلها تجمع، وذلك شئ يسعد الاعداء، تجمع على ان الوطن العربى يتعمق فيه الخلاف ويتزايد فيه الاقتتال وتتنوع شعب التناطح ولا حياة لمن تنادى، مكوك الجامعة العربية يحط الرحال هنا ليغادر الى هناك ومواعيد اجتماعات وزراء الخارجية العرب تتقرر لتلغى بعد ساعات، ولا قمة عربية، القتال على اشده بين حركة امل والفلسطينيين الذين كتب عليهم القتال فى مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنه بجميع الاسلحة بينما اطفالهم يتضورون جوعا وعطشا وتلهب اجسادهم سياط شمس حارقة، والصليب الاحمر، لا الهلال الاحمر لأنه هذا الاخير تابع للنظم العربية وخلافاتها، الصليب الاحمر يحاول الحصول على هدنة لأخلاء الجرحى، اللجان تجتمع فى دمشق وزعماء المليشيات هناك فى نفس الاجتماعات التى يقولون انها سوف توقف القتال ولكن القتال لا يتوقف، وخدام يخدم ولا احد يعرف ماذا يخدم ولمن بينما برى وجنبلاط يتجادلان وكلاهما لا ينظر الى الارض لأنه لا يريد ان يرى ما اذا كان يدوس احدا ذلك ان الدوس على رقاب الآخرين دون ان تراهم اهون، وهات يا نضال، وان كان حزب الله قد قلب المعادلة وصار يقدم الشهداء ويكبد اليهود الخسائر البشرية الكبيرة والكثيرة ولا يعرف أحد كيف سيستغل إنتصاراته هذه مستقبلا فى داخل لبنان ؟

الطقس شديد الوطأة ولهذا فان زعامات الامة العربية تصيف فى اوربا، فى كان ونيس وميامى وبقية الجزر والشواطئ مع اولادهم بالطبع وحريمهم

وولدانهم وخدمهم الخ ومن يريد الخروج على هذه العادة فهو شاذ وعليه ان يبقى فى المخيمات، ولو كانت امريكا قد هدمت خيمة القذافى لأنتهى الخروج عن عادة الحكام العرب المألوفة وهذا بالطبع خطأ امريكا،

ويفاجأ خالد برنين الهاتف متواصلا ملحاحا فى وقت متأخر من الليل وهو ما اعتاد على مثل هذا الطلب فى مثل ذلك الوقت المتأخر، وقد نهض من فراشه والهواجس تدور فى ذهنه وكأنما كان يتوقع حادث ما، رفع سماعة الهاتف محاولا ان يتفادى تثآبا هجم عليه، ليسأل، نعم، وما يكاد يسمع الصوت حتى يحس بان قلبه يكاد يهوى الى امعائه واختلج جسمه كله دفعة واحدة، انها فوزيه، كانت تتحدث والعبرات تقطع كلماتها، وحاول ان يهدى من روعها ليستوضح الامر، كانت تبكى بحرقة شديدة وبصوت متهدج بعيد غير واضح وكأن سقف البيت قد وقع عليهما وهى تتكلم من تحت الانقاض، ردد متوسلا، ارجو يا فوزيه ان تتمالكى نفسك لأفهم ما الذى حدث واين انت ؟

يتوقف الصوت دون ان تقفل الخط، وقد ازاح السماعة من على اذنه لينظر اليها باستغراب ثم يعيدها وهو يردد، ماذا حدث واين انت ؟ وكانت تكفكف دموعها بمنديل سمع حركته على سماعة الهاتف وقد استجمعت كلماتها ففهم منها انها فى المستشفى وان والدها فى خطر وهى ترجوه ان يساعدها

يرد بالحاح اى مستشفى ؟

تقول انه مستشفى خاص بالامراض القلبية ولا تعرف العنوان، فيرجوها ان تجعله يتكلم مع احد المرضين او الممرضات ليعرف العنوان، يتحدث الى ممرضة، يكتب العنوان ويعود الى حجرته ليرتدى ثيابه بسرعة ويتجه الى المستشفى ولم يستغرق ذلك اكثر من عشرة دقائق فالطريق خالية ليلا والمدينة هادئة لكنه بالتأكيد لا يعرف كم استغرق من وقت فقد قاد السيارة

بسرعة فائقة، ارتقى السلم ركضا وفتح باب الحجرة بعد ان طرقها مرة واحدة وقد انخلع قلبه للمشهد الذى رآه، صديقه الحاج بذلك الجسم العملاق والصدر العريض والنظرات الثاقبة ممددا على سرير متكوّرا كأن جسمه قد ضغط ولم يتبين بشكل جيد إلا يده اليمنى الممدة محاذاته وقد ثبت عليها خرطوم صغير ابيض موصل بمعلاق فوق السرير وذلك الكيس البلاستيكى الملىء بمادة الكلوكوز، كان فاقد الوعى تماما وعيناه مقلوبتان لا يظهر منهما الا البياض بينما تهدل انفه الطويل وكأنه لم يعد يجرى فيه الدم، فى حين ان فوزيه تجلس قرب السرير غارقة فى دموعها تبكى بصوت مسموع وما كاد يدخل حتى بادر بالسؤال عما حدث، تنهض فوزيه وقد ازداد نشيجها وابقت رأسها مخفوضة بحيث لم تنظر اليه الا لمحة بسيطة قالت، لقد وقع على الارض على اثر مشادة مع فتحى ونقلناه الى هنا فاقد الوعى، يردد، فتحى فتحى، ما هذا المخلوق الذى لا يترك وراءه إلا المصائب وكأنه نبت شيطانى اينما حل افسد، يتمتم بهذه الكلمات ثم بصوت جهورى، يطمئنها ويتحدث الى الطبيب الذى كان فى الحجرة، قال الطبيب، لقد اصيب بجلطة وحالته غير مطمئنة، اسعفناه بتدليك كهربائى سريع ولا نستطيع ان نقرر شيئا قبل مرور 48 ساعة من الآن . .

خالد، وما هى الجلطة ؟ ينظر الى فوزية مواسيا ؟

الطبيب، مرض القلب، ولكن هذه المرة فيما علمت كانت نتيجة انفعال شديد وعلمت انه يعانى من مرض القلب منذ سنوات . .

خالد، متمتما، مرض القلب ! متى وكيف ولماذا لم اعرف او اسمع بذلك ؟

فوزية من خلال دموعها، وقد لاحظ لأول مرة ان عينيها غشاهما احمرار، لقد كان فى حالة سيئة للغاية، خرجت الكلمات بصعوبة وقد اختلطت الدموع على حافتى الفم . .

يهدئ خالدا من روعها، قائلا، الاعمار بيد الله وهو الآن بحالة احسن، سكتت قليلا حتى خيّل له انها قد هدأت، ولكن ما لبث ان تجهم وجهها واجهشت بالبكاء اذ داخلتها الهواجس والشكوك، وربما تألمت اكثر ان تكون فى هذا الوضع فهى ما شوهدت مرة واحدة الا فرحة باشة رقيقة جميله متأنقة يبعث مظهرها وجمالها السرور والبهجة، وقد ادرك خالد ما كانت تعانيه فاضاف، لا داعى لهذا اننا يجب ان نذكر قول الله تعالى ﴿الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنا إليه راجعون﴾ وما حدث ربما يكون بحمد الله اقل بكثير مما كان يمكن ان يحدث ؟ . .

احست باطراف جسمها تتراخى وكفكفت دموعها، وقد طلب اليها خالد ان تجلس وجلس قبالتها ملاحظا انها منهكة وحائرة، ولم يشأ ان يسألها عن زوجها اذ ربما زاد ذلك من حنقها وتوتر اعصابها، قال متوددا، لماذا ترهقين نفسك بما لا طائل منه ؟ فردت، عجيبة ان تحدث هذه الاشياء فى حياتنا وما عرفت والدى الا هادئا، وقد غالبتها الكلمات فتوقفت، اجاب، لا بأس سوف ينهض باذن الله معافيا، وألح عليها سؤال، فقالت، هل تعتقد انه سيشفى ؟ اننى اتمنى ان اموت قبل ان افقد الوطن والاب وال . . . . تتوقف وتندفع من عينيها الدموع وهى تدفن وجهها بين راحتيها بينما غطى ذلك الشعر الاسود الفاحم كتفيها وركبتيها وجانبى المقعد . .

يرد خالد، لا داعى يا فوزيه لهذا، انه لابد ان يشفى باذن الله وما هى الا وعكة عابرة سرعان ما تمر، ينظر الى وجه الحاج الذى لا مظهر لحياة فيه، يربت على كتفها محاولا تهدئتها ولكن قشعريرة سرت فى اوصاله لم يجد لها تفسيرا فى هذا الوقت بالذات وهو لم يمد اليها يده فى غير المصافحة منذ تزوجت، استمر يلح عليها الى ان هدأت وبدأ يحاول جذب انتباهها فى الحديث الى امور اخرى وقد كفت عن البكاء ولكنها كفّت ايضا عن الحديث كأنما اصابها بكم وربما استحوذ على تفكيره شئ آخر فهى فعلا اذا حدث لا قدر الله وتوفى والدها تكون قد فقدت الكثير بل ربما فقدت كل

شئ فهو والدها وامها وصديقها وكل شئ فى حياتها، وبعد برهة مد خالد يده بمنديل ابيض طالبا اليها ان تذهب الى الحمام للاهتمام بزينتها اذ ربما استيقض الوالد من غفوته ولا يصح ان يراها الا كما تعود ان يراها دائما جميلة نضرة وذلك بالتأكيد سيخفف من وطأة الحادث عليه، حاولت ان تتمنع ولكنه قال لها، اتبخلين على احب الناس اليك بان يراك سعيدة فيسعد ؟

نهضت متجهة الى الحمام، وهنا عاد الطبيب ليجرى فحصا آخر رغبة فى التطمين ولما عادت بادرها خالد مطمئنا، لقد قال الطبيب ان حاله تتحسن فلم تستطع ان تتمالك نفسها وقد ازدان وجهها فهتفت، والله قال هكذا ؟ ضغطت على المنديل الابيض الذى كان فى يدها وهى تقول اشكرك فلقد احسست بالفرج لمجرد مجيئك . .

وبعد صمت سألت، هل قال متى سيفيق ؟

قال انه يتحسن وبالتالى سوف يفيق فى اقرب وقت باذن الله وستعودان الى البيت . .

نظرت اليه نظرة تساءل وكأنها تشاءم من كلمة البيت، وقالت، اريد والدى فقط ولا اريد البيت، بل اريد والدى واخوتى ووطنى الذى ارجو ان اعود اليه قريبا . .

رمقها بنظرة تحدى، الوالد والوطن فقط ؟ . .

اجابت بهدوء، والله ذلك ما اريد . .

ابتسم وقال، حمدا لله على ما استجد، مستدركا، لا اقصد مرض الوالد . .

قالت، افهم ولكننى حسبتك تفهم الحقيقة كلها . .

قال، وما هى ؟

اجابت وقد اختفت من نبراتها حنحنة التأثر بالبكاء، لم اكن فى اى وقت ارغب البقاء خارج بلادى لولا ضغط والدى وها انت ترى ما حدث. .

وهنا سألها كأنما اراد ان يتأكد من حقيقة موقفها، واين فتحى ألم يكن هنا اثناء نوبة عمه ؟

بازدراء شديد اجابت، منذ متى كان يهتم باحد. .

قال، غريبة حتى فى مثل هذه الحالة. .

ردّت، المسألة اكثر تعقيدا مما تتصور، فقد جاء الى البيت بعد غياب عدة ايام وكان كما تعرف خمرانا ولم اتحدث معه ولكن والدى كان مصّرا على وضع حد للامور وعندما احتّد الكلام حاولت تهدئته اذ ربما امكن مناقشته فى وقت آخر فما كان منه الا ان شتمنى امام والدى و. . . . توقفت عن الكلام. .

فسأل ثم ماذا ؟

قالت، رغم الاهانة فقد سألته بهدوء ما اذا كان يحس بان عنده بيت، فاعتبر ذلك هزء به وقال بتحد، بيت ؟ اى بيت هذا الذى تتحدثين عنه واهان والدى ايضا، وقد اصابتنى الدهشة مما بدر منه فسألت عما يعنيه، الا انه لم يرد علىّ مباشرة بل توجه الى والدى ليقول له ابنتك طالق طالق طالق، واندفع خارجا ليصفق الباب خلفه حتى كاد يخلعه وقد اصيب والدى بما اصيب كما ترى وهذا ما حدث، تتجه بنظرها الى الارض عاضّة على طرف شفتها السفلى كأنها تريد ان تمنع الدموع. .

قال، اى نوع من الناس هؤلاء الناس ؟! سبحان الله، صحيح معادن الناس تختلف بين ذهب وفضة وخردة، لا حول ولا قوة الا بالله. .

نظرت اليه وقد احست انه يتألم، فقالت ما يهمنى الآن فقط هو والدى ورب ضارة نافعة. .

وتمر الايام هادئة متعاقبة ويتحسن حال الوالد وقد كرّس خالد كل وقته للاهتمام بصديقه وابنته وان كان يستحوذ على تفكيرة من وقت لوقت ذلك الهاتف الداخلى لكنه سرعان ما يعود الى وجدانه واحساسه بالمسؤولية والوفاء، ولم يحدث ما ينغّس عليهم رتابة مرور الايام وهدوئها اذ كانت صحة الوالد تتقدم باطراد وخالد يعمل فى دأب على توفير ما يحتاج اليه هذا الصديق دون كلل الى ان خرج من المستشفى معافيا وقد رفض فى بادئ الامر العودة الى البيت حسب رغبة ابنته ولكن خالد الح عليه لأنه يحتاج الى فترة نقاهة، يقبل الوالد على مضض مرددا القول، لقد عوضتنا يا خالد عن الاهل والابناء وسهلّت علينا قسوة الحادث وآلامه. .

بخجل شديد يقول خالد، حمدا لله على السلامة وما فعلت الا واجبى، انهمكت فوزيه فى اعداد البيت الذى كان شبه مهجور اثناء فترة العلاج دون ان تدخل تلك الحجرة التى كانت تضمها مع زوجها، وقدمت القهوة لخالد ووالدها وقد ظهرت على ملامحها الطمأنينة. .

كانت شمس ذلك النهار تودّع الشرق حيث بدأت تتلاشى اشعتها الحمراء وينقضم قرصها الدائرى وهى تغوص فى اتجاه الغرب عندما عاد خالد الى بيته ليقضى اول مساء مع اولاده منذ مرض صديقه يملأه احساس غامر بالسعادة اذ كان قد قام بواجب الصداقة تجاه انسان عزيز، وكذلك تجاه صديقة قديمه وهى انسانة تختلف عن كل الآخرين من وجهة نظره، جميلة هادئة مستكينة انيقة، نام تلك الليلة نوما عميقا وقد تراءت له تلك البيوت الحجرية المتناثرة بين اشجار الريتون والطرقات الترابية المتعرّجة واذا بهاتف يناديه، هنا مات جدك وعمك وعلى هذا التراب ولدت وفوق حافة هذا الجبل مات طموح الطليان، استيقض وتلمس جبهته وكأن اجراس كنائس العالم كانت تدق على رأسه وقد تصّبب العرق من جبينه، ، ولكن الوطن بخير، حمدا لله. . انتهت

كتب صدرت للمؤلف

1__ المسطرة الحاسبة سنة 1966م - أعيد نشره ثلاث مرات

2- هندسة الراديو والتلفزيون 1967م - أعيد نشرة أربع مرات

3- حرب الشرق الاوسط بين الحقيقة والخيال 1967م - أعيد نشره مرة واحدة

4- مستقبل التلفزيون الملون 1968م - أعيد نشره مرة واحدة

5- مذكرات جندى فى سيناء، ترجمه 1968م

6- مولد دولة افريقية، ترجمه 1971م - أعيد نشره مرة واحدة

7- ثورة الادغال فى افريقيا، ترجمه 1978م

8- وثائق الوحدة لا وثائق اكتوبر تأليف 1979م - أعيد نشره مرتان

9- خرافة الستار الحديدى حول بلاد السوفييت، تأليف 1980م - أعيد نشرة وترجم الى عدة لغات منها الروسية والدارية والألمانية

10- نفط الشرق الاوسط وازمة الطاقة فى العالم، ترجمه 1981م - أعبد نشره مرة واحدة

11- الاتحاد السوفييتى نظرة من الداخل، تأليف 1985م - أعيد نشرة وترجم الى عدة لغات كالإنجليزية والروسية والدارية والألمانية

12 تاريخ المخابرات الاسرائيلية، ترجمه 1990م

13- عدوى نفسى، اسرار الانتفاضة الاولى، ترجمه 1990م - أعيد نشره مرة واحد

14- الفقى مصباح مؤذن الفجر، روايه، تأليف 1991م - أعيد نشرها مرة واحدة

15- مذكرات ذو الفقار على بوتو، ترجمه 1993م - أعيد نشره ثلاث مرات

16- تدمير العراق بعد 135 يوما من المبادرات الدولية، ترجمه 1993م

17- حقيقة معارك الدفاع عن الجبل الغربى، تأليف 1993م

18- قائد معركة القاره ومعارك القبله، سالم بن عبدالنبى، تأليف 1993م

19- تاريخ الشعوب الاسلامية فى الاتحاد السوفييتى سابقا، ترجمه 1999م

20- الجهاد الوطنى ادب وتاريخ، تأليف، 1999م - أعيد نشره مرة واحدة

21 تاريخ الاسلام والمسلمين فى البوسنا والهرسك، ترجمه 2000م

22- قبرص من معاويه الى اجاويد، تأليف 2000م - أعيد نشره وترجم الى اللغة اليونانية والتركية

23-مسافر يبحث عن الموت، جزء اول، روايه، تأليف 2000م

24- ليلة الحلم الطويل روايه، تأليف 2001م

25- شهداء الكردون العشره، تأليف 2001م

26-مسافر يبحث عن الموت، جزء ثانى، روايه، تأليف 2002م

27-ازمات السودان بين الديموقراطية والديكتاتورية، تأليف 2003م

28- الليبيون والثورة الجزائرية، تأليف 2004م

29- حجارة من سجيل، الانتفاضتان، دروس ونتائج، تأليف، مخطوط

30- رحلة فى الصحافة، 1960- 1995م، مخطوط

31- جمال عبدالناصر والعرب، تحت الطبع - 2002م

32- اسهامات الليبيين فى النضال الفلسطينى من الحسينى الى عرفات تأليف، 2005م

33- الجهاد الوطنى ادب وتاريخ، الجزء الثانى، تأليف 2005م

34- الفقى مصباح في مستشفى المجانين، رواية، جزء ثانى 2005م

35 - إنهيار الأتحاد السوفييتى والتغييرات المدوية في العالم - تأليف، 2006م

36- تاريخ أفريقيا السمراء - ترجمة - 2007م

37- معركة العميان واحدة من معجزات الجهاد الوطنى الليبى - تحت الطبع - 2008م

مسرحيات،،

38 - المجد فى اربعة فصول

39 - صخب المدينة فى فصلان

40 - الجشع فى اربعة فصول

41 - الرجل الذى لم يفقد الانتماء فى خمسة فصول

42 - وطن في محنة بين مشفق وشامت في أربعة فصول .